

خَالِدُ بْنُ الوَلِيد

بَطَلُ اليَرْمُوك

دَارُ العِلْمِ لِلمَلايين



خالد بن الوليد

بطل اليرموك

دار العلم للملايين
بيروت





١

سيف الله

خالد بن الوليد من اعظم القادة المسلمين الذين غيروا وجه التاريخ ، ورفعوا راية الإسلام فوق أركان دول تداعت وانهارت .

فمن هو هذا البطل ؟

ولد خالد بن الوليد في مكة المكرمة سنة خمس وعشرين قبل الهجرة ، واشتهر بـ « أبي سليمان » . وهو ابن الوليد ابن المغيرة من بني مخزوم من قريش .

انه من مخزوم ... ولمخزوم وظيفة خطيرة في قريش ، أيامَ الجاهلية . وان انفردت أمية براية الحرب ، وانفرد بنو هاشم برعاية بيت الله الحرام ، فإن بني مخزوم كانت لهم القُبَّة التي يجمعون فيها عُدَّة القتال ، ولهم قيادة الفرسان .

وكان والده الوليدُ سيداً من كرام قريش ، وقد ذاع صيتُه بالجود، وعرفته قبيلته أنه الرجل الذي يجود بنصف ما تجود به قريش كلّها . وقد نهى عن أن تُوقَد في مكة نار ، من أجل طعام غير طعامه الذي يقدمه للضيف .

ويكفيه فخراً أن يكون عمه ـ يومَ تخاصموا على رفع الحجر الأسود الى موضعه من الكعبة ـ هو الذي رأى أن يترك ذلك الى أول داخلٍ من باب المسجد ، ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ...

ويشاء القدر أن يكون النبيُّ هو ذلك الداخل ، فحكَّموه ، فاستطاع بإلهام من ربه أن يطفىء نار الفتنة .

وليس عجيباً بعد ذلك أن يكون خالد الذي نشأ في أعرق بيوت مخزوم وأعلاها وأشرفها بطلاً من الأبطال ، أنجبته البطولة ، وأنشأته الشجاعة .

اعتزّ خالد بنسبه وعشيرته منذ طفولته ، ودافع عن قبيلته دفاعَ الأبطال ، فاحبته وأكرمته .

نشأ خالد قويَّ الجسم ، مفتولَ العضل ، نشيطاً ،

فمكّنه ذلك من أن يغلب فتيان القبائل الأخرى ، سواء في سباق الخيل ، أو ألعاب السيف ، والترس ، والمبارزة .

وكان منذ حداثته ، تستهويه المنازَلة والمصارعة ، وما صارع أحداً إلا صرعه .

وقد تحدّاه ، مرةً ، عمر بن الخطّاب ، وهو الفتى المنيف ، وكانا غلامَين ، فاقبل عليه خالد ، وأمسك به ، وهصره بيده هصرةً لم يثبُت لها عمر ، فاذا هو يسقط أرضاً ، وساقُه كسيرة ، فهلّل الغلمان لانتصار خالد.

ومن هذه المصارعة الصغيرة ، تمرّس خالد بفنون الصراع. وكان يعمد الى مصارعة أعدائه، في ساحة القتال، واحتضانهم وهم على سروج خيلهم ، حين يَقصُر السيف ، ولا يلبّي الرمح !

وهكذا برز خالد كفارس عظيم منذ صباه ، وتعوّد على الإقدام ، وتذليل كل صعوبة في طريقه . إنه لم يكن يأنف خشونة البادية ، فظلّ جسمه قوياً ، رشيقاً ، صلباً، كما جاء طبعه صادقاً ، حازماً .

وهذا ما جعل قبيلته تعتمد عليه في غزواتها للقبائل

الأخرى ، ودفاعها عن نفسها .

وكان خالد، في حداثته، يأنف لنفسه أن يُرى سكران. وطالما ضَمَّ بينه وبين رفاقه مجلسُ لهو وشراب : وبينا كان هؤلاء الرفاق يكرعون الخمرة، حتى تذهب بعقولهم ، كان خالد وحده ، ينتحي منعزلاً عنهم ، مستسلماً إلى أفكار تطوف في نفسه ، بعيداً عن هذا الجو الصاخب، يردّد بينه وبين نفسه :

ـ « هل خُلقتُ لمثل مـــا يصنع هؤلاء الشباب ؟ إن طموحي يحدثني بأني خلقت لشيء عظيم ! »

ولكن، ما هو هذا الشيء العظيم الذي كان يحدث خالدٌ به نفسه ؟

إنه آتٍ لا ريبَ فيه !

بطولة خالد في الجاهلية .

وكان خالد فتىً ناشئاً يوم ظهر النبي بالدعوة الجديدة، فَنَفَر منها كما نفر قومه أجمعون .

وما هو الا أن بلغ مبلغ الزعامة في القتال حتى تجرّد

لها بعزيمة الفتوة ، وشجاعة البطولة . ولم تنقضِ سنتان على موت أبيه حتى كان قائدَ الميمنة في وقعة «أحد» المشهورة .

صفّ النبي جنوده للقاء الأعداء ، وأقام الرماة من وراء جيشه ، وقال لهم :

ـ « عليكم أن تحموا ظهورنا . فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشاركونا . وإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا » .

ولما ولّى المشركون منهزمين ، وتبعهم المسلمون ظافرين خالفت كثرةُ الرماة توصية النبيّ ، وتصايحوا :

ـ « الى متى نبقى هنا وقد انهزم المشركون ؟ عليكم بالغنائم ! »

فتركوا مواضعهم ، وكانت عينا خالدٍ تترصّدان حركاتِ القوم .

فإذا هو يستغلُّ هذه الفرصة ، فيامر فرسانه بالالتفاف وراء القوم .. واستداروا على من بقي من الرماة ، فقتلوهم . وتضعضعت صفوف المسلمين ، واختلط بعضهم ببعض ، فصاروا يقتتلون على غير هدًى ، ويضرب بعضهم بعضاً من

العَجَلة والدهشة . وشاع أن النبي قُتل في المعركة ... وقد يكون ذلك حقاً، لولا أن جماعةً من صحابته أحاطوا به، وردُّوا عنه بأجسادهم .

تلك هي الوقعة الأولى التي خطَّط لها خالد بعبقريته الحربية ، وانتصر فيها .

والوقعة الثانية التي اشترك فيها خالد هي وقعةُ « الخندَق » وكان هو الموكَّل بالنبيّ ، في كتيبة غليظة من فرسان قريش والأحلاف . فاندفع يقاتل سحابةَ النهار وقسماً من الليل ، الى أن تحاَجزَ الفريقان ، وارتدّ خالد بعد هنيهة ، يطلب مداهمة المسلمين ، وكاد يظفر بها لولا حرسٌ من المسلمين تصدَّوْا له .

ثم انقطع القتال، وهو لا يزال على الطَلَب والطواف.

وكان هو آخرَ من ترك حومةَ القتال بعد يأس المشركين من عبور الخندق ودخول المدينة .

وتصدّى خالد مرة أخرى للنبيّ ، عامَ الُحدَيبية، وهو في طريقه الى مكة ... وكان معه مائتا فارس انطلقوا معه للقاء النبي قبل بلوغ مكة ...

ولما حانت صلاة الظُّهر صلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهمّ خالد أن يُغير عليه لولا نخوةٌ من الفروسية أبت له أن يهاجم المسالم ، ووقع ذلك منه موقعَ الرهبة ، حتى قال :

ـ « ان الرجل ممنوع ! »

« اسلام خالد »

وبعد كل هذه المحاولات الفاشلة تهيّأ الجو لخالد كي يسأل نفسه :

ـ « فيمَ هذا العداء والنضال ؟ أمن أجـــل الكعبة ، ومحمدٌ يرعاها ويحترم جدارها ويحجّ اليها ؟ أم من أجل العصبة القومية ، وشرفُ محمد شرف العرب أجمعين ؟ أم من أجل الكرامة ، ومحمد يصون للعزيز كرامته ، ويعرف لأهل الحسَب قدرهم ؟ »

وفي تلك الآونة التي يشتدّ فيها الجذْب والدفع بـين الإنسان وضميره ، ناداه قلبه :

ـ « الى متى يا خالد ؟ »

في هذه الساعة أتته رسالة من أخيه :

ـ [« سألني رسول الله : « أين خالـــد ؟ » فقلت : « يأتي الله به » . فقال : « ما مثلُ خالد يجهل الإسلام. ولو أنه مال الينا لكان خيراً له ، ولقدّمناه على غيره » .

فاستدركْ يا أخي ما فاتك منه . »

ولا عجب أن تفتح هذه الرسالة لخالد طريقـــه الى الإسلام .

فلبس ، ذات يومٍ ، ثيابه ، ثم عَمَدَ الى رسول الله ، فلقيه أخوه ، فقال :

ـ « أسرعْ يا أخي ، فإن رسول الله أُخبر بقدومك ، فكان سروره عظيماً ، وهو ينتظرك . »

وما إن لقيه حتى ابتسم رسول الله له ، فسلّم عليـــه بالنبُوّة ، فردّ عليه السلام بوجه طلْق .

وقال خالد :

ـ « اني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله » .

فقال الرسول :

ـ « الحمد لله الذي هداك .. قد كنتُ أرى لك عقلاً ، ورجوتُ أن لا يُسلمك الا الخير » .

أحبّ الرسول خالداً لشهامته وصدقه وشرف أصله ، كما حقق خالد ظنّ الرسول به فاخلص للدين الجديد ووهبه نفسه . وتفتحت عبقريّته عن براعة حربية نادرة لا تزال تُضرب بها الأمثال .

لقد هدى الله خالداً إلى الاسلام ، فمنح خالد الاسلامَ قلبه وروحه .

وكان خالد يؤمن بحظّه في المعارك الحربية ، ويعتقد أن النصر محقّق له على الدوام ، مهما قلّ عدد جنده وكثر جند عدوٍّه .

وهذا ما حدث فعلاً . فمنذ أن أسلم خالد أصبح أحد أبطال الإسلام .

ذن خالد ينتصر بسيفه وقوّته . فيتوجه إلى غزو الأعداء وهو مؤمن بانتزاع النصر منهم . وكان الأعداء يعلمون أيضاً أن خالداً يحمل معه الهزيمة عليهم ، مهما كان استعدادهم .

لقد فاز خالد بثقة الرسول منذ إسلامه . فاصبح دعامة متينة من دعائم الدين الحنيف . فقد توجّه مع جند المسلمين ليشترك في معركة مؤتة بعد شهرين فقط من إسلامه .

كان الرسول العظيم قد جهّز جيشاً من ثلاثة آلاف رجل لغزو الروم الذين قتلوا الحارث بن عُمير الأزديّ . وكان الرسول العربي قد حمّله كتاباً اليهم . وكان هؤلاء الجند أول حملة من المسلمين تقابل الروم وتقاتلهم . وكان على رأس الحملة زيد بن حارثة وكان ما يزال فتى في مطلع الشباب .

وقال الرسول العربي لقادة الجيش بعد أن تم الاستعداد للتوجّه إلى معركة مؤتة :

ـ إذا أصيب زيد بن حارثة يقود الجيش جعفر بن أبي طالب. وإن أصيب هذا فيتولى القيادة عبدُالله بن رواحة .

وسار جيش المسلمين حتى وصل مؤتة في منطقة البلقاء الحاليّة من الأردن . وهناك التقاه جيش الروم وكان عدده يبلغ مئة ألف مقاتل .

ـ دارت المعركة ... فقُتل زيد ، وحمل الراية جعفر ، واندفع أمام الجند في قلب الروم ، وهو يُنشد :

يا حبّذا الجنةُ واقترابُها طيّبة ، وبارداً شرابُها
والروم رومٌ قد دنا عذابُها عليَّ ، إذ لاقيتُها ، ضِرابُها

فاذا بيده اليمنى قد قُطِعت ، فتلقّاها بيسراه ، وهو يردّد :

ـ لن تسقط الراية على الأرض !

فإذا بيده اليسرى قد قُطعت. فاحتضنها بصدره وهو يهتف :

ـ لتبقَ عاليةً ، عالية ... !

وسقط على الأرض مضرّجاً بدمائه؛ بينما سحب الرايةَ منه عبدُالله بنُ رواحة ، وتولى قيادة الجند . وهو يحدّث نفسه :

ـ « هل أنا جدير بحمل هذه الراية ؟

يا نفس ! اذا لم تُقتلي اليومَ ، متّ غداً .

قد أعطاكِ الله ما تمنيتِ .

خوضي المعركة بدون تردد !

وعلى آثارهما سيري ! ›

وما هي إلا جولة حتى لحق عبدُالله بصاحبيه ...

من ذا يتولى الآن حَمْلَ الراية في هذا المأزق المتلاحم ؟

اصطلح الناس على خالد بن الوليد . ومن أجدرُ بهذا الموقف العصيب من خالد ؟

استلم الراية خالد ، وخاطب الجمع :

ـ لقد أصبح الأمر لي الآن .

واللهِ ، ما قصَّرْنا ولا انثنينا ...

ولكن إصرارنا على القتال مع عدوٍّ يفوقنا عـــدداً وعُدَّةً ليس معناه الا الانتحار .

الحرب كرٌّ وفرّ .

أطيعوني فيما أريد !

لقد عوَّلتُ على الانسحاب بأقلّ ما يمكن من ضحايا .

يتصبح الميمنةُ ميسرةً ، والميسرة ميمنة حتى يظن العـدو أن المدد يصلنا ، فينقطع عن اللَّحاق بنا خوفاً منا . ليس ذلك عن خوف ، ولكن هو الرأي قبل الشجاعة . »

وهكذا راح خالد يُدافع الروم عن أصحابـه ، حتى انحاز عن المعركة ، وتوغَّل شيئاً فشيئاً في الصحراء . ولم يتعقب خالد الروم خوفاً من أن يعرفوا بحيلته، ولم يتعقبه الروم خشيةَ أن يجرّهم الى الصحراء ، ويقضي عليهم .

ولما دَنوْا من المدينـة تلقّاهم رسول الله والمسلمون ، ولقيَهم الصبيانُ يسرعون ، ورسول الله مقبل ، مع القوم على دابَّة ، فقال :

ـ « خذوا الصبيان وأعطوني ابنَ جعفر !»

فأخذه وحمله بين يديه يقبّله ويقول :

ـ « يا ابنَ جعفر الطيَّار ! »

وجعل الناس يرمون على الجيش العائـــد التراب ويقولون :

ـ « يا فُرَّار ! فررتم عن سبيل الله » .

فيقول رسول الله :

ـ « لا ... ليسوا بالفُرَّار ، ولكنهم الكُرَّار . ما خالد إلا سيفٌ من سيوف الله » .

ومنذ ذلك الحين سُمِّي خالد « سيف الله » .

« فتح مكة »

وجمع الرسولُ ، ذات يوم ، رجالـــهَ . وأمرهم بان يُجهِّزوا أنفسهم ، ويحملوا سلاحهم ؛ وهم لا يدرون ؛ أين يريد ؟

وهتف بهم :

ـ « إن قريشَ تمادت في عدوانها ، ونقضت العهـــود والمواثيق ، واشتدت في تعذيب المسلمين ... ان هدفنا هو مكة . »

وهلَّل المسلمون لهذه البشرى التي طالما انتظروها .

وتدافع المسلمون ، في جيش عظيم ، نحو مكة ؛ فدخلوها آمنين على كثرة ما بها من المشركين. ونهى النبيّ أصحابه عن

القتال فيها ، فلم يحدث قطُّ قتال إلا من صوب خالد بن الوليد ، لأن رجالاً من قريش كانوا رصدوا الباب الذي وصل منه ، وجمعوا له جَمْعَهم، فمنعوه ، ورموه بالنّبل ، وشهروا عليه السلاح ، فاضطر الى مقابلتهم بالمثل، فبطش بهم ، وقتل منهم قرابة ثلاثين ...

ولما انتهى خبر ذلك الى الرسول غضب وقال :

ـ « ألم أنْهَ عن القتال ؟ »

فقالوا :

ـ « إنه خالد ، قُوتل فقاتل » ...

فقال :

ـ « قضاء الله خير » .

ـ « لا تُغزى قريش بعد هذا اليوم الى يوم القيامة . »

ودخل خالد مكة ... وأسرع الى الكعبة يُحيّيها ، ويطوف حولها .

وفجأةً ، تراءت له الذكريات البعيدة... وأنّى له أن ينسى ذلك اليوم ، في الجاهلية ، يومَ تداعت الكعبة ،

تهدمت جدرانها ، وأقبل الناس خائفين ، لا يدرون ما يصنعون .

اذا أرادوا ترميمها وتجديد بنائها فلا بد من هدمها ؛ ولكن ، أيّ رجل يجرؤ على تهديم بيت الله ؟

انسلّ خالد من بين الجموع المترددة ، وتناول المعوَل، وضرب الضربة الأولى ، وهو يقول :

ـ « اللهمّ ! لا نريد إلا الخير ! »

واذا كان هذا الموقف يدل على جرأة نادرة ، وبطولة مفكّرة ، فإن موقفه ، يوم نَدَبَهُ النبي في مهمة خطيرة ، هو وثلاثين فارساً بعد فتح مكة ببضعة أيام ـ لا يقلّ جرأة .

لم تكن هذه المهمة الا هدم « العُزّى» وهي الصنم الكبير الذي كان معبودَ بعض قبائل العرب؛ وكان أبو خالدٍ نفسه يتمسّح به وينحر له الإبل والغنم .

ولن تكون هذه المهمة التي تتعلق بهدم معبـودٍ كبير من المهمات اليسيرة .

لكن خالـداً خرج حتى انتهى الى « العُزّى » فجرّد

سيفه ، فخرجت اليه من تحتها امرأة سوداء ، عريانة ، ناشرةً شعرها ، فأخذ خالداً اقشعرارٌ في ظهره ، وضربها بالسيف فشقّها .

وعاد الى النبي يبشره بما صنع ، ويقول :

ـ « الحمد لله الذي أكرَمنا بك ، وأنقذَنا بك من الهلاك ، لقد كنت أرى أبي يأتي « العُزّى » بخير مالِه من الإبل والغنم ، فيذبحها عند قدميها ، ويقيم عندها ثلاثاً ، ثم ينصرف إلينا مسروراً .

ونظرت الى ما مات عليه أبي ، والى ذلك الرأي الذي كان يعيش في فضله ، وكيف خُدع ، حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضرّ ولا ينفع . »

فأجابه رسول الله :

ـ « ان هذا الأمر الى الله ، فمن يسَّره للهدى تيسَّر له ، ومن يسَّره للضلالة كان فيها . »

وزاد ذلك من حب الرسول لخالد ، وقرَّبه إليه ، حتى اختاره رفيقاً له في حجَّة الوداع .

٢

حروب العرب المرتدين

لما توفي محمدُ عليه الصلاة والسلام رجع بعض العرب عن الإسلام ، وارتدّوا عن الخضوع للخليفة أبي بكر الصدّيق ، وامتنع بعضهم عن أداء الزكاة ولم يبق مخلصاً للإسلام إلا قريش في مكّة ، والأنصار في المدينة ، وقبيلة ثقيف في الطائف .

ولم يقف المرتدّون عند حد ارتدادهم، وإنما أغاروا على المدينة ، فطردهم عنها الحرس الذي كان يحمي المدينة .

تولّى أبو بكر الخلافة . وكان أكثر هؤلاء المرتدّين لا يؤمنون بالإسلام إيماناً صحيحاً . وقد ضاقوا بالزكاة لأنهم اعتبروها من قبيل الجزية التي يدفعها المغلوبون في حربهم ، والمصالحون الذين يقبلون حكم المسلمين دون حرب . كان هؤلاء المرتدّون يريدون التخلص من زعامة قريش

عليهم ، ويودّون التملّص من القوانين الأخلاقية التي قيّدهم بها القرآن الكريم .

واضطرّ أبو بكر أن يحارب المرتدّين حرصاً على دوام رسالة الإسلام . وجهّز جيشاً يتألف من أحد عشر لواءً جعل على رأس كلٍّ منها قائداً .

ولم ينسَ أبو بكر خالداً في هذه الحرب . فسيّره الى بني أسد، حيث ادّعى فيهم رجل اسمه طُليحة أنه نبي بعد محمد . وكان جيش خالد يقارب أربعة آلاف رجل .

سار خالد في طليعة جيشه قاصداً عين ماءٍ لقبيلة طيّء. وكان طليحة الأسدي ، المعروف بالمتنبّي الكذاب، يلتف بكسائه ويحيط به قومه من قبيلة فِزارة .

ودارت رحى المعركة ، فانهزم على أثرها طليحة الذي كان يمتطي فرسه ، ومعه امرأته على بعير ، وخرج بقومه قائلاً :

ـ من استطاع منكم أن يفعلَ ما فعلتُ فلْينجُ بأهله.

لكن خالداً الذي عزم أن يقضي على المرتدّين ،

ليجنب الإسلام كارثة الانقسام ، التقى مع قبيلة أسد وفزارة وحمل عليهم في معركة شديدة مريرة . وقد دافع المرتدون عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً غير أن " سيف الله " تمكن من أن يقهرهم وينصر المسلمين

ثم سار خالد لمحاربة مالك بن نُويرة سيد بني يربوع، لأنه منع الزكاةَ وارتدّ عن الإسلام . ولما وصل خالد منطقة البطاح بثّ جنده فجاؤوه بمالكٍ مع جماعة من قومه ، فأمر خالد بحبسهم ثم قضى عليهم الجند .

وكان أبو بكر قد أمر خالداً والقادة المسلمين أن يطلبوا ممن يستسلم لهم أن يؤذّن ، فاذا أذّن كفّوا عن محاربته . أما ما يفعله المسلمون قبل الأذان فهو أمر تسمح به الحرب ولا يحاسبهم الخليفة عليه . وذلك لئلا يضعف حماسهم . وقيل إن قتل مالك بن نويرة أغضب أبا بكر ، إذ كان يعتقد أن الرجل لم يرتد،وإنما تردد في شأن الزكاة. فأمر بدفع دِيَةِ مالكٍ وردّ ما سباه خالد من أهله .

ولم يلبث أبو بكر أن رضي عن خالد ووجّهه إلى مُسيلمة الكذّاب الذي ادّعى النبوة في بني حنيفة باليمامة.

وكان مسيلمة أشد المرتدين عنفاً وأصلبهم عزيمة، وقد استعد لمحاربة خالد حين سمع بقدومه.

استنفر مسيلمة قومه فبلغ جنده زهاء أربعين ألفاً.

وصاح شرحبيل بن مسيلمة يحمس قومه:

- يا بني حنيفة، اليوم يوم الغيرة. اليوم إن هزمتم سُبيت نساؤكم وأموالكم، فقاتلوا على أحسابكم.

لم يلقَ خالد أشدّ من حرب بني حنيفة خلال حروبه مع العرب. فحمّس جنده، ونادى بهم أن يلزم كل واحد منهم قبيلته ليعرف ما يصيبه في القتال.

وأدرك خالد أن الحرب لن تنتهي إلاّ بعد القضاء على مُسيلمة الكذّاب، فبرز أمام قومه ودعاه إلى المبارزة قائلاً:

- أنا ابن الوليد، أنا ابن عامر وزيد، فليبارزني منكم من يشاء.

وما تقدّم أحد للمبارزة إلا غلبه خالد وقضى عليه. لقد قضى على كلّ من بارزه. ثم دعا مسيلمةَ فأجابه إلى طلبه، وبرز له في الميدان. ولما حمل عليه خالد انهزم مسيلمة.

فقال بنو حنيفة لصاحبهم:

ـ أين نبوءتك التي كنت تعدنا بها ؟

فأجاب مسيلمة :

ـ دافعوا عن أنفسكم يا بني حنيفة . وإلى البستان !

التجأ مسيلمة وقومه إلى بستان له كان ذا أسوار عالية . وهجم المسلمون عليهم ، وقضوا على مسيلمة ومن لم يستطع الفرار من قومه .

كانت المعركة دامية خسر فيها بنو حنيفة أكثر من عشرة آلاف رجل ، وقُتل من المهاجرين والأنصار ستمائة ، بينهم كثير من حفظة القرآن .. فامر أبو بكر بجمع القرآن وكتابته خشية أن يضيع منه شيء .

ثم إن فلول بني حنيفة صالحت خالداً فصالحهم على أخذ ما عندهم من الخيل والإبل وكرم من كل قرية ومزرعة يختارها ، وأقرّ أبو بكر شروط خالد .

وكان بنو حنيفة من أعظم قبائل ربيعة وأكثرها عدداً ، وأعظمها جرأة ، فكانوا يسكنون قرى عامرة بالمزارع الخصبة ، والبساتين . لكن حرب المسلمين عليهم كانت عنيفة .

وبعث خالد وفداً من بني حنيفة إلى المدينة ليفاوضوا أبا بكر، ويقدّموا له الولاء. فاستقبل الخليفةُ الوفد وعقد صلحاً معهم، لكنه لامهم لأن مسيلمة الكذاب خدَعهم وجرّهم إلى معارك قضت على أبنائهم ودَحرَتهم.

كان لخالد الفضل في القضاء على المرتدّين والمشركين في جزيرة العرب. فأزال هذا البطل العقباتِ التي اعترضت الإسلام، وأخمد الفتن التي حاول أعداء قريشٍ أن يشعلوها في بداية خلافة أبي بكر.

وكان أبو بكر الصديق ذا حزْم ورأي، وكان خالد ابن الوليد سيف الله الذي استلّه من الغمد ليقضي به على المشركين.

وأحب أبو بكر خالداً، فلم يحاول أن يُضعف من شانه لأنه لم يهادن الأعداء. وقد اشتهر بحدّة المزاج كأيّ رجل تمرّس على الحرب وتربّى على الفروسية وانتزاع النصر.

وكان بعض الحاسدين يرون فيه قسوة لا يراها فيه أبو بكر الصدّيق. لأن ذلك الخليفة آمن بضرورة الفروسية والبطولة لترسيخ دعائم الاسلام، والقضاء على

أعداء المسلمين الذين يتاخمون حدودهم، ويحاولون الوقوف في وجه انتشار الدين الحنيف .

آمن المسلمون آنذاك ببطولة خالد ، ورددوا دائماً قول الرسول فيه : « إنه سيف من سيوف الله » . وعمل خالد على نشر رسالة الاسلام بقوة ايمانه وشجاعته التي أقر له بها أعداؤه .

وقد تمكن هذا البطل من أن يبسط نفوذ الإسلام على أنحاء الجزيرة العربية خلال وقت قصير ، ثم يستعد لغزو الروم والفرس الذين كانوا يحكمون العراق والشام .

٣

فتح العراق

لمّا سادت رايةُ الاسلام على جزيرةالعرب عزم الخليفةُ أبو بكرٍ أن يغزو دولتيَ الفرس والروم لينشر الاسلام ويُزيل الظلم عن الشعوب التي تحكمها هاتان الدولتان ، ويبسط عليها العدل والإخاء والمساواة .

كان يعلم أنْ الدولتين المجاورتين لبلاده أقوى من جيوشه العربية من حيث العددُ والعتاد . لكنه كان واثقاً من النصر مؤمناً بقول الله تعالى : « إنْ تنصروا الله ينصركم » .

وكتب الخليفة إلى خالد بن الوليد الذي كان يقيم في اليمامة أن يغزو بلاد فارس فيدخل العراق من جنوبها ، وإلى عياض بن غَنْم أن يدخل العراق من شمالها ، ثم يُسرعان إلى الحيرة . فاذا تمّ الفتح كانت إمارة الحيرة لمن

يسبق صاحبه منهما . وأمرَهما ألا يستعينا في حربهما بأحدٍ ممن ارتدَّ عن الاسلام .

وكان يرى أن يكون المحاربون ممن حَسُنَ إسلامُهم وقوي إيمانهم ، لأنهم سيحاربون جيوشاً متحضّرة كثيرة العدد والعتاد وخبيرة بفنون الحرب .

حينئذ قسم خالد جيشه إلى ثلاث فرق :

يرئس الفرقة الأولى المثنّى بن حارثة الشيباني، البطل المعروف بحسن بلائه .

ويرئس الفرقة الثانية عديٌّ بن حاتم الطائيّ ، المؤمنُ الصادق في إيمانه .

ويرئس الثالثة عاصم بن عمر بن الخطاب .

وأمرهم أن يكون اللقاء في « الحُفَير » أهم موانىء بلاد فارس ، وأشدها حَصانةً .

وكان « هُرمُز » « مرزباناً » ، أي نائباً لكسرى على العراق ، فارسياً خبيثاً سيئاً في معاملته للعرب ، يحاربهم برّاً ، ويحارب الهنود بحراً . وكان العرب يعتبرونه مَثلاً

في الخبث فيقولون: « إنه أخبث من هرمز ، وأكْفَرُ من هرمز ! » .

إلى هرمز هذا كتب خالد كتاباً حازماً قال فيه :

ـ أسلِمْ تسلَمْ . أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وادفع الجِزية . وإلا فلا تَلُومَنَّ إلا نفسك .

وحين وصلت الرسالة إلى هُرمُز جمع جنوده وسبق خالداً إلى « الحُفَير » . وهناك ربط بين جنده بالسلاسل لئلا يفرّ أحدهم من المعركة إذا خاف الحرب .

حينما بلغ خالداً الخبرُ استمال الناس وطلب إلى جنوده أن يسرعوا إلى « نبع كاظمة » ، لكن هرمز سبقه إليه فصاح خالد عندما علم بذلك :

انزِلوا هنا وحطّوا أثقالكم ، وجالِدوهم على الماء ، فلَعمري لَيَصيرنّ الماء لأصبرِ الفريقين وأكرم الجندَين .

كان للنزول على المياه في الحروب القديمة شان عظيم . وكم من معركة جرت من أجل الاستيلاء على نبع ماء .

وفعل المسلمون ما أمرهم به خالد : توقّف الفرسان ،

وتقدم المشاة . وكان هرمز يريد الغدر بخالد ، فطلب إليه النزال ، بينما تواطأ مع جماعته ليغدروا بخالد . ولما تفوق خالد على هرمز في المبارزة ، وكاد يقضي عليه ، أسرع فرسان الفرس إلى مهاجمة خالد. عندئذ هجم العرب على الفرس ، وهزموهم ، وقضوا على الجنود المقيدين بالسلاسل . فسميت تلك المعركة « موقعة ذات السلاسل » .

وقد استولى خالد على قلنسوة هرمز المزينة بالذهب والجواهر ، وهي القلنسوة التي لم يكن يلبسها في فارس إلا الأشراف .

وهكذا أصبحت تلك القلنسوة غنيمةً لبيت مال المسلمين ، لكن أبا بكر منحها لخالد مكافأةً له على بطولته في الحرب .

ومن طريف الأمر أن خالداً بعث إلى أبي بكر بالغنائم التي كسبها ، وكان بينها « الفيل » الأول الذي يكسبه العرب في غنائمهم .

يومذاك انهزم من تبقّى من جيش هرمز . لكن فلول



عربيٌ يدافع عن مبدأه ، وفارسيٌ عن منصبه ..
فأيهما ينتصر ؟؟

هذا الجيش تجمعت عند « ابن قريانس » الذي حشد قواته وعزم على مهاجمة العرب .

زحف اليه خالد ورجاله. وجرت معركة في «المذار»، خسر فيها الفرس ثلاثين ألفاً وغنم خالد السفن والعتاد .

وحين علم « كسرى أردشير » بالهزائم المتوالية ، بعث « الأندرزغر » الفارسي الأصل الذي جمع جيشاً من أعداء المسلمين ، وأقام في منطقة « الولجة » من بلاد فارس . فكمن لهم خالد ورجاله وطوقوهم ، وقضوا عليهم . أما الاندرزغر » فقد ولى هارباً ، ومات في الصحراء عطشاً .

وعلى أثر انتصار خالد بن الوليد في معركة الولجة عزمت قبيلة بكر بن وائل على التحالف مع الفرس . وكانت هذه القبيلة تقيم على ضفاف نهر الفرات في منطقة « أليس » فعجل اليها خالد حتى لقيها هنالك .

وقد استخف رجال بكر بن وائل بالمسلمين فلم يستعدوا للحرب، ووضعوا البسط على الأرض وبسطوا عليها الأطعمة غير مهتمين لغزوة خالد .

يومذاك أمر «سيفُ الله» بعضَ حماته أن يحموا ظهره في المعركة ، وطلب المبارزة لمن يشاء . فبارزه آنذاك مالك بن قيس ، لكنه لم يستطع مقاومته في الميدان إلا بضع دقائق ، إذ قضى عليه خالد ودارت المعركة العنيفة فخسر أعداء خالد آلافاً كثيرة من الرجال .

وبعد انتصار المسلمين وقف خالد على الطعام وقال :

ـ لقد أعطيتُكم هذا ، فهو لكم !

تناول المسلمون عشاءهم بعد معركة النهار الدامية . وأقاموا تلك الليلة على ضفاف الفرات ، وهم يحسُّون أن النصر حليفهم ما دام خالد يقودهم .

وتابع خالد فتوحه . وكان صيته يسبقه إلى كل مكان فيؤثّر في أعدائه . لقد طارت سمعة هذا البطل في آفاق العراق وبلاد الشام ، فاسرع الأُمراء والملوك يُعدّون العدّة لمقاومة هذا الفارس العربي المسلم الذي يحمل سيف الله ليحارب به المشركين .

كان أبو بكر يسعَد بما يحرزه المسلمون من انتصارات متوالية ، ويغتبط بإيمانه العميق وهو يرى الدين الحنيف

ينتشر أنّى ذهب جيش المسلمين وحيث أقام المؤذّن يدعو إلى رسالة الإسلام .

لم يقف خالد عند هذه الانتصارات وهو يتابع فتح العراق ، وإنما مضى في سبيله يزيد غنائم بيت مال المسلمين ، ويمدّ رقعة الدولة الإسلامية، وينشر دين العدالة والمساواة . إننا نراه يسير إلى الحيرة ، حتى إذا قطع النهر وحاصرها فخرج إليه عمرو بن عبد المسيح وطلب منه الصلح صالحه خالد.. على دفع الجزية السنوية التي بلغت مئة وتسعين ألف درهم . وكانت هذه الجزية أولَ ضريبة يدفعها العراق للخليفة أبي بكر .

وقد أكّد خالد صلحه لأهل الحيرة بكتاب قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عَديّاً وعمراً ابني عديّ ، وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة ، وحيرى ابن كال ، ورضي بذلك أهل الحيرة . وعاهدوه على مئة وتسعين ألف درهم تُقبل في كل سنة جزاءً عن أيديهم ورهبانهم وقُسُسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد ،

حبيساً عن الدنيا . وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة » .

استكمل خالد واجباته الدينية فصلّى بعد فتح الحيرة وتمام الصلح ثماني ركعات . وقال لرجاله .

ـ قاتلتُ يوم مؤتة فانكسرت في يدي تسعة سيوف ، وما لقيت قوماً كقوم لقيتهم من أهل فارس .

وبلغت أنباء انتصارات خالد الجزيرة العربية . وكان المال الذي يغنمه تحمله القوافل إلى المدينة المنوّرة عاصمة الخلافة .

وذات يوم بلغ أبا بكر انتصارُ خالد في موقعة من مواقعه ، وما أحرزه الأبطال من غنائم فقال الخليفة :

ـ عجزت النساءُ أن يلدْن مثل خالد !!

موقعة الفراض والحج

راق لخالد أن يتحدث مع عمرو بن عبد المسيح عن حاله وما ادرك من الدنيا ، فسأله :

ـ كم بلغت من العمر يا عمرو ؟

فأجابه عمرو :

ـ مئة سنة .

وتابع خالد بن الوليد يسأله :

ـ وماذا رأيت فيها أيها الشيخ ؟

أجاب عمرو :

ـ رأيت القرى منظومة بين دمشق والحيرة . كانت تخرج المرأة من الحيرة فلا تتزود إلا برغيف واحد ، وتستضيف القرى الآهلة .

ابتسم خالد وقال له :

ـ ليس لك من شيخوختك إلا عمل الخير . لقــد خرِفتَ يا عمرو .

ولما أقبل أهل الحيرة على خالد بعد الصلح قال لهم :

ـ لم يبلغني أنكم خادعون ماكرون . فمالكم تمثلون لرجل خرِفٍ لا يعرف من أين جاء !

فأجابه عمرو الذي أراد أن يثبت له قدرته وحنكته:

ـ وحقّك أيها الأمير أنا أعرف من أين جئتُ .

فكرر خالد السؤال :

ـ من أين ؟

فأجابه عمرو ؟

ـ من بطن أمي .

فضحك خالد ، وقال :

ـ القوم أعلمُ بمن فيهم .

عزم خالد بعد فتح الحيرة أن يفتح مدينة « الأنبار »

الواقعة غرب بغداد . وقـــد علم ما أصاب الفُرسَ من اضطراب بعد أن مات « كسرى أردشير » .

وحاصر خالد « الأنبار » فتحصَّن أهلها ، وراحوا يُطلّون على جيش المسلمين من الحصون . فطاف خالد حول الحصن ، وقال لرجاله :

ـ ان هؤلاء يجهلون الحرب فارموا عيونهم بالنبال

فرمى جنوده الأعداءَ وأصابوهم ، فاضطر أمـيرهم « شيرازاد » إلى أن يصالح خالداً ، وطلب منه الأمان فأمَّنه .

ولما دخل خالد الأنبارَ وأمَّن أهلها رآهم يكتبون بالعربية ، فسأل أحدهم :

ـ مَن أنتم ؟

فأجابه الأنباري :

ـ نحن قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا. وكانت أوائلهم قد سكنت هذه المدينة أيام نبوخذنصّر .

فسأله خالد :

ـ ممن تعلّمتم الكتابة ؟

أجابه الأنباري :

ـ تعلمنا الخط من إياد .

جعل خالدُ الزِّبرقان بن بدر أميراً على هذه المنطقة . وقصد « عين التمر » التي كانت إمارةً « لمهران » العجمي ، و « عَقّة » بن أبي عقة . وقد حشد عَقّةُ العرب المتحالفين من قبائل تَغلب وإياد .

وأراد عقّة العربي أن يبارز خالداً مدّعياً لمهران أنه ادرى بقتال العرب . فقُضي على عقّة وانهزم جنده دون أن يحاربوا . فأسر منهم المسلمون الكثير ، وهرب مهران وترك حصن عين التمر . فسبى خالد من فيه وغنم كثيراً من المال والمتاع .

قصد خالد بعد ذلك « دومَة الجنْدَل » في بلاد الشام. وكان فيها عياض بن غَنْم الذي حاصره الأعداء بعد خداع من « أكَيْدر » . وقد كتب الى خالد يطلب منه النجدة فأجابه سيف الله :

« قليلاً تأتكَ الكتائب » .

عندما علم أهل « دومة » بقدوم خالد استجمعوا قبائلهم . لكن سيف الله حصر الموقع بين جيشه وجيش عياض فقضى على أعدائه ، وأغار على حصنهم فاحتلّه وغنم ما لا يحصى .

وتابع خالد وعياض معاركهما في العراق ليُتمّوا فتح البلاد . وكانا ينتقلان بجيشهما من موقعة إلى أخرى ، ومن نصر إلى آخر .

خاض خالد بن الوليد سلسلةً من المعارك في العراق . وكانت كلّها انتصارات باهرة أثبتت للعالم أجمع أن الله ينصر المؤمنين الصادقين في إيمانهم . كما برهنت على شجاعة خالد النادرة ، وعلى إيمانه المطلق بالله ورسوله ودينه الحنيف .

وقد تحالف الفرس والروم ، والعرب من تغلب وإياد ، جميعاً ضد خالد .. فوجب عليه أن يخوض المعركة الأخيرة في تخوم العراق ، وهي موقعة « الفراض » بين البصرة واليمامة .

هناك كان نهر الفرات بين الجيشين . فقال الأعداء لخالد :

ـ إما ان تعبروا إلينا أو نعبر اليكم .

فاجابهم خالد :

ـ بل اعبروا أنتم الينا .

فعزم أعداؤه على أن يعبروا النهر ، وقال بعضهم لبعض :

ـ هذا رجل يقاتل من أجل إعلاء كلمة الدين ، وله عقل وعلم . والله لينصرنّه ربُّه ويخذلنا .

غير أن جنود الروم والفرس عبروا النهر حتى إذا تكامل عددهم حمل عليهم خالد حملةً واحدة، ففرّ منهم من أراد سلامة نفسه و قضي على من اشترك في القتال .

وكانت خسارة الفرس والروم زهاء مئة ألف في هذه المعركة الحاسمة التي فتحت العراق أمام المسلمين .

وانتهت المعارك . فتاق خالد إلى ان يؤدي فريضة الحج ، فامر جيشه بالرجوع إلى الحيرة ، و كلّف

عاصماً بن عمر بن الخطّاب بقيادته . ولمْ يعلِم أحداً عن نيته هذه .

وخرج خالد مع بعض أصحابه قاصداً مكة . وسلك طريقاً صعبة وعرة قادتْـهُ مباشرة إلى « جبل عرفات » . وما كاد الجيش يصل الحيرة حتى كان خالد يؤدي فريضة الحجّ . لقد كانت سرعته خارقة في الطريق .

وحـــين علم الخليفةُ أبو بكر بمجيء خالد دون إذن منه ، لامه على ذلك ، وطلب إليـــه العودة إلى الشام بعد أداء الفريضة ، وكتب اليه قائلاً :

سرْ حتى تاتي جموع المسلمين باليرموك . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت . فـلْـتَـهْـنِـكَ (أي هنيئـاً لك) أبا سليمان النيـّةُ والخطوة . وأتمْ يتمم الله لك . ولا يَدخلنّك عُجْـب (أي غرور) فتخسَـرَ ، وإياك أن تُـدِلّ بعمل (أي تفخر وتَمْـنُـن) ، فـــإن الله له المنّ ، وهو وليُّ الجزاء » .

كما كتب الى أبي عبيدة في الشام بمقدم خالدٍ اليه :

ـ « سلام الله عليك . أما بعد فقد ولَّيتُ خالداً قتال العدو في الشام . فلا تخالفْه ، واسمع له ، وأطعه، ولم أبعثه اليك إلا لأني ظننت أن له فطنةً في الحرب ليست لك . »

وهذه براعة في اختيار الرجال ، وتمييز بين الصالح للزعامة السياسية ، والصالح للقيادة الحربية .

٥

فتح بصرى

كان خالد يعتبر نفسه جندياً مطيعاً ، يجاهـــد في سبيـــل الله ورسوله . وكان يعلم أن أبا بكر يُكنّ له كل محبةٍ وتقدير ، فما عليه إلاّ أن ينفذ أمر الخليفـة حتى يتم النصر الذي وعده به الله .

وها هو أبو بكر يأمره أن يسير إلى الشام فعليه أن يتوجه إلى هناك . واستحثّه أبو بكر أن يأخذ معـه نصف الجند ، ويترك النصف الآخر للمثنّى بن حارثة الشّيباني وطلب إليه ان لا يحاول اختيـــار الشجعان وحدهم معه .

أراد منه أبو بكر أن يَعْدِلَ في تقسيم الجيش.وطلب

يه أن يعين جند المسلمين إذا اشتدت المعارك عليهم ،
ما إذا تمكن غيره من القادة أن يفتحوا بلاد الشام فإنه
يعود مع أصحابه إلى العراق .

استأثر خالد لنفسه بالصحابة على المثنّى ، وترك له
مثلهم بالشجاعة، وقسم الجيش إلى قسمين . لكن المثنّى
م يقبل بذلك وقال له :

ـ واللهِ لا أقبل إلا بإنفاذ أمر أبي بكر كلّه ، ولا
بدّ لي أن أصطحب نصف الصحابة أو بعض النصف .
فأنا أرجو النصر بإخلاص صحابة رسول الله وصدق
إيمانهم .

عند ذاك اضطُرّ خالد إلى أن يرضيه . وترك له
نصف أصحاب رسول الله .. وهل في الجهاد أفضل من
المؤمنين الصادقين ؟

انفصل خالد عن المثنّى من الحيرة وقصد « دومة
الجندل » ثم وصل الى « قراقر » ، وهي نبع ماء في
الطريق أغار عليه المثنى ليشقّ الطريق أمام خالد .
وأراد خالد أن يمضي حتى نبع « سوى » لكنه استشار

.رافع بن عميرة الطائيّ ، فقال له :

- إنك لن تُطيق المضيّ في هذه الطريق . فالوصول الى ذلك النبع يحتاج الى مسير خمس ليال لا مـــاءَ في طريقها على الإطلاق .

فقال له خالد :

- لكـنّني عزمت عليها . ولا بدّ لي من ذلك ..

وخاطب رجاله :

- لا يضعف يقينـكم . اعلموا ان المعونة تاتي على قدر النيـّة ، والأجرَ على قدر المشـقّة ، والمؤمن لا يكـترث بشيء يصيبه ما دام الله يُظلـّه ويرعاه .

فوافقه رجاله على المضيّ نحو الهدف . وقال رافع :

- استكـثروا من الماء . ومن استطاع منكم أن يملأ أذن ناقته ماءً ثم يربطها فليفعل . أعطني يا خالد عشرين ناقة سمينة .

..

وأحضر له خالد ما طلب . فترك رافع النّوق حتى

عطشت أشد العطش ، ثم قادها فارواها من الماء ، وقطع شفاهها لئلا تجتر .

وقال لخالد :

— سِر بعون الله .

سار خالد بجنده . وكان رافع يرافق الخيل والأحمال . وكلما توقفت القافلة عمد الى أربع نوقٍ فذبحها وأخذ ما في بطونها من الماء ، وسقى به الخيـــل ، بينما شرب الرجالُ الماءَ الذي تزوّدوا به .

وكان خالد ، هو وجماعته ، كالطيور في انطلاقها ؛ يصل الليلَ بالنهار ، ويصل النهار بالليل .

وطالما كان ، وهو على صهوة جواده ، يتمايل رأسُه من شدة النُّعاس ، وهو يفكر في ذكرياتٍ أمست بعيـــدة ، لكنها الآن قريبة منه .

« انه يفكر في يوم مؤتة ؛ يـــومَ استطاع الروم بجيشهم الضخم أن يردُّوهم عن غايتهم ...

هل هنالك من مؤتة أخرى؟ أجل؛ لا بد أن تكون...

ولكنها هذه المرة ستكون على الروم . يومٌ بيومٍ، وضربة بضربة ... »

ذلك ما كان يفكر فيه خالد ، لأنه لم يتعود أن ينام على الانكسار ... وهو عربيٌّ لا ينسى الثار .

ولمّا خشي خالد نضوب الماء في آخر يوم من سفره قال لرافع :

– ما عندك يا رافع ؟ أما زلنا بعيدين عن الماء ؟

فاجابه رافع :

– لقد أدركنا الماءَ ان شاء الله !

وتطلّع أمامه وقال لجماعته :

– هل ترون شجيرة من عوسج ؟

أجابه الناظرون :

– كلا ، إننا لا نشاهد شيئاً .

حينئذٍ قال :

– إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم والله إذن ،

وهلكتُ معكم . عليكم أن تفتّشوا عنهـــا . وأداروا أبصارهم في الأفـق فلَمحوهـــا . وكبـر المسلمون لمّا شاهدوها فقال رافع :

ـ توجهوا نحوها واحفروا في جذورها .

وفتح خالد عينيه على الموضع الذي أشار الدليل بحفره .

ـ إنه الماء ! انه الحياة ! انه النجاة !

فيردد خالد في قرارة نفسه :

« بل ، إنه الثار والنصر . سيعلم الروم أيَّ منقلَب ينقلبون . »

فشربوا حتى ارتوَوْا ، وأدرك جيشُ المسلمـــين « سُوى » ففتحها .

وتابـــع خالد سيره . فوصل « القرَيتين » ، وهي مدينة قريبة من تدمر . وكانت محصّنة ، فحارب أهلها وهزمهم . وتقدّم إلى « حوّارين » قرب حمص فانتصر على أهلها .

عزم « سيف الله » أن يحقق رغبة المسلمين ، فاقترب

من دمشق ، ووصل قرية « ثنية العُقاب » ونشر عليها الراية التي أهداه إياها الرسول عليه السلام . وكانت سوداء اللون ، تسمى « العُقاب » . ووعد خالد أن يحفظ الأمانة مهما بذل من جهاد في سبيل الله .

واستمرّ خالد في فتحه ينتقل من نصر الى آخر حتى أدرك مضارب « الغسّانيين » .

وكان لا يكلّ من الحرب مهما تطاولت ، فكأنه خُلق من أجل الفتح والنصر . وما خشي قَطُّ تكاثُرَ الأعداء ، ولا أساليب حربهم . وكثيراً ما كان يردد :

ـ تكثُر الجنود بالنصر ، وتقلّ بالفشل والخذلان .

وقد قلّ نوم هذا البطل الشجاع ، وكأنه اعتبر النوم عدوّ المنتصر . فالأعداء قد يخدعون ويهاجمون في الليل ، وهو لا يريد أن يؤخَذ على حين غِرّة . فكان لا ينام ، ولا يُنيم .

ولما وصل خالد ديار الغسّانيين حاربهم . وحاصر مع رفاقه مدينة بُصرى .

وكانت بصرى قلعة حصينة للروم ، وهي مفتاح بلاد الشام آنذاك .

ولقد حاصرها من قبلُ ثلاثةٌ من القادة المسلمين : أبو عبيدة بن الجرّاح ، وشُرحبيل بن حَسَنة ، ويزيد بن أبي سفيان .

ثم جاء خالد الآن يستكمل الحصار فيهدّ عزائم الروم . وكان هؤلاء يعلمون انهم خاسرون دون شك . فسيفُ الله لا يُغلب .

وفتح خالد ورفاقه بصرى . وصالح أهل المدينة . فكانت أول مدينة من بلاد الشام يفتحها خالد في عهد أبي بكر الصدّيق .

ووافق أهل المدينة على دفع الجزية . وهل كان أمامهم من سبيل سوى ذلك ! فالروم يتقهقرون ، والفرس يتشتتون ، والعراق جزء من دولة الإسلام ، والمسلمون يزحفون في حربهم نحو دمشق .

أثار انتصار خالد في بصرى دولة الروم من أدناها

الى أقصاها . فراح قادتها يُعِدّون العدة لمعركة قوية تكون الحدّ الفاصل في هذه الحرب . وكان خالد يعلم أن الجهاد لن ينتهي في بصرى ، ولا في غيرها من مدن الشام ، فهو يريد أن يرى راية الإسلام على سوريا بأسرها .

ولا عجب في ما حققه خالد من أمجاد وانتصارات ، فقد كان عُمق إيمانه وحُسن تدبيره كافياً لتهديم امبراطورية الروم . لقد حارب هذا الرجل بسيف الله ، ودعاء الرسول له بالنصر .

أما الشجاعة النادرة التي امتاز بها خالد فهي التي جعلته يمضي إلى موقعة اليرموك وكأن الحرب نزهة يستمتع بها . وكان يعلم أن الروم سيدفعون بكل قوّتهم في هذه المعركة ، وسيحاربون حرب اليائسين ، وهم يعتمدون على كثرة العدد .

٦

اليوم الأول من معركة اليرموك

لما سمع أبو بكر باستعداد الروم لمعركة اليرموك قال:

ـ والله لأُنسِيَنّ الرومَ وساوس الشيطان بخالد بن الوليد.

وكان خالد يعلم أنه سيلقى الروم في موقعة فاصلة، فاستعدّ لها، والتقى رفاقه حول بُصرى التي فتحها، ثم مضى إلى اليرموك.

بلغ عدد جيش المسلمين خمسةَ وأربعين ألفاً. وكان القادة المسلمون أربعة، هم: عمرو بن العاص، ويزيد ابن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وشُرحبيل بن حسنة. وكان كل أميرٍ منهم مستقلاً عن الآخر، يصلّي

بجنده ، ويقاتل منفرداً .

وكان عدد جيش الروم مائتين وأربعين ألفاً .

وحطّ خالد الرحال، وجمع قادةَ الجيوش، واستفسر منهم عن حركات الروم ؛ فأخبروه أنهم يشعرون بكثرة الحركة فيهم منذ أيام .

فقال خالد :

« ألم تفهموا أن كثرة الحركة دليل عــــلى اقتراب الهجوم ؟ فماذا صنعتم لهم ؟ »

فكان جوابهم أن كل قائد منهم استعدّ لهم في موقفه . ثم سالوه رأيه فيما يصنعون .

أدرك خالد بغريزته الحربية ، أن المعركة ينبغي أن تبتدىء بقيادةٍ متفرّقة لا تتحد في نظام واحـــــد ، وأن المعركة . . . كل معركة ، لا بد أن تفشل اذا لم يكن يديرها رأس واحد .

ولكن . . كيف يستطيع أن يُقنع هؤلاء القادةَ بأن يتنازلوا له عن قيادتهم ؟ وهو أدرى بنفسية العربي الذي

بحب الرئاسة .

ولكنَّ خالداً السياسي لم يكن باقلَّ فطنةً من خالد المحارب .

فكَّر في الأمر قليلاً، ثم تفتَّقت له الحيلة ، فقال لهم :

ـ « ان الذي أنتم فيه أشدُّ على المسلمين مما قد غشيَهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرَّقت بينكم . فالله الله !...

ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله، ولا عند خليفة رسول الله .

هلمُّوا !

لِنتناوبِ الإمارةَ الموحَّدة! فليكنْ عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم . ودعوني أتأمر اليوم . »

بهذه الفكرة الرائعة ، حسم خالد الموقف ، وأرضى كبرياء كل قائد منهم . ولكنهم ـ وهم في مثل هذا المازق ـ أدركوا غاية خالد ، فقالوا له بصوتٍ واحد :

ـ« بل أنت تكون قائدَنا الى النصر ! »

وهكذا تسنَّى لخالد أن يجمع قلوب الأمراء والقادة والجند على قيادته .

وكان توحيده القيادة أولَ خطوة في طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك .

بلغ عدد المقيَّدين من الروم بالسلاسل أربعين ألفاً ، وعدد المربوطين بالعمائم أربعين ألفاً أيضاً ، وعدد المشاة ثمانين ألفاً ، والفرسان مثل هذا العدد . ثم جاءهم عون بقيادة « ماهان » أحد أعظم قادتهم . وكان يتقدم مع رجال الدين الذين يحرّضون جيش الروم على القتال .

يومذاك كان الأمبراطور هرقل، وكان يقيم في حمص ، يراقب المعارك عن كثب . وقد كتب إلى قادته :

«اجتمعوا وانزلوا في مكان ضيّق المهرب، وأبشروا فإن ماهان سيأتيكم عوناً لكم » .

وفعل الروم ما أُمروا به فنزلوا على ضفة اليرموك في مكان ضيّق محصور . وكانت الياقوصة من ورائهم واليرموك من أمامهم كالخندق .

ثم جـاء المسلمون فنزلوا مقابلهم . ولم يكن للروم طريق إلا عليهم .

وخاطب خالد جنوده شارحاً لهم أن هـذا يومٌ من الأيام الخالدة ، فلا ينبغي فيه التفاخر والتظاهر بالبطولة من أجل البطولة ، بل عليهم أن يجعلوا عملهم خالصاً لوجه الله .

وجعل القادة المسلمون خالداً أمـيراً عليهم في بداية الحشد . فاقام خالدٌ أبا عبيدة على قلب الجيش وعمرو بن العاص وشُرحبيل بن حسنة على المَيْمَنة، وجعل في الميسرة يزيد بن أبي سيفان . وقسم الجيش إلى كتائب من الفرسان. وجعل على رأس كل كتيبة بطلاً صنديداً . وسلّم ابنـه عبدَ الرحمن، الذي كان يبلغ الثامنة عشرة من عمره، كتيبة من هذه الكتائب .

فقال له أحد الجنود :

ـ ما أكثرَ الروم وأقل المسلمين !

فانتهره خالد :

ـ بل ما أقلّ الرومَ وأكثر المسلمين ! إنما تكثرُ الجنود بالنصر ، وتقلُّ بالخذلان لا بعدد الرجال .

كان أبو سفيان بن حرب يقف أمـــام كل كتيبة ويقـول :

ـ الله الله ! إنكم ذادةُ العرب وأنصار الإسلام . وإنهم ذادةُ الروم وأنصار الشّرك . اللهمَّ إن هـــذا اليوم من أيامك . اللهم أنزِل نصرك على عبادك .

وكانت نساء المسلمين على تلٍّ خلف صفوفهم يرقبن المعركة .

ولما نشب القتال ، واشتدّ البـأس خرج « جرجة » القائدُ الذي كان يقود فرقةً أرمنية تبلغ اثني عشر ألفاً من صفّ الروم . ولما أصبح بين الجيشَين نادى :

ـ ليخرجْ إليّ خالد .

فخرج إليه خالد وَجَعل أبا عبيدة مكانه في قيـادة الجيش ، لئلا يختلف القادةُ إذا ما أصاب خالداً مكروه .

وقف الفارسان بين الصفَّين ، واقتربا من بعضهما .

وأمّن كلاهما صاحبه . فقال « جرجة » :

ـ اصدُقني يا خالد ولا تَكذبني، فإن الحرّ لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع. باللهِ عليك، هل أنزلَ الله على نبيّكم سيفاً من السماء ، فأعطاك إياه ولا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟

أجاب خالد :

ـ لا

فاردف « جرجة » يقول :

ـ لِمَ سُميت « سيف الله » ؟

أجاب خالد :

ـ إن الله بعث فينا نبيّه ﷺ ، فكنت فيمن باعده ، ثم هداني اللهُ فتبعته . وقال لي : أنت سيف من سيوف الله ، سلّه اللهُ على المشركين . ودعا لي بالنصر . فسمّيت لذلك سيف الله . وأنا من أشد المسلمين على المشركين .

قال جرجة :

ـ أخبِرني يا خالد ، إلامَ تدعوني ؟

أجاب خالد :

ـ أدعوك إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب .

وسأل جرجة :

ـ وما هي منزلة من يجيبكم ويدخل دينكم ؟

فأجاب خالد :

ـ يكون واحداً مِنّا ، له ما لنا وعليه ما علينا .

وسأل جرجة :

ـ وهل له مِثْلكم من الأجر والذخر ؟

فأجاب خالد :

ـ نعم ، وأفضلُ ، لأننا اتبعنا نبيّنا وهو حيٌّ يخبرنا بالغيب، ونسمع منه القرآن. وكان من حق من رأى مِثلنا ، وسمع ما سمعنا أن يُسلِم . وأنتم لم تروا مثلنا ، ولم تسمعوا مثلنا. فمن دخل منكم الإسلام بنيةٍ وصدقٍ كان أفضلَ منا.



الزعيم الروماني ينضم إلى الجيش العربي

عندئذٍ قلب جرجة ترسه ومال مع خالد . وقال له :

ــ هيّا علّمني الإسلام .

أخذه خالد إلى خيمته ، وهداه إلى الإسلام . وأعطاه ماءً فتوضا ، وصلّى ركعتين .

ظنّ الروم أن جرجة حمل على المسلمين ، ووقفت جموعهم تنتظر المبارزة . لكن شيئاً من هذا لم يحدث . إذ شاهدوا جرجة يذهب مع خالد تاركاً الروم ، مفضلاً عليهم هدايةَ الإسلام .

حينئذ دارت المعركة العنيفة. وحمل الروم على المسلمين حملة شديدة . فتراجع بعض الفرسان عن أماكنهم ، الا عِكْرِمة بن أبي جهلٍ الذي صاح في قومه :

ــ ألاَ من يبايعني على الموت ! ؟ لقد قاتلت مع النبيّ في كل موقعة ، ولن أفرّ اليوم .

فبايعه عمّه الحارث المخزومي وضرار بن الأزور ومئات الفرسان . وقاتلوا أمام خيمة خالد قتال الأبطال . واستُشهد بعضهم .

ولما اشتدت المعركة امتطى خالد فرسه وسار حتى قطع صفّ المسلمين واتجه صوب التلّة التي جعل المسلمون نساءهم خلفها . وهناك نادى في النساء قائلاً :

ـ يا نساء المسلمين ! أي رجل أتى إليكنّ منهزماً فاقتلنه بأيديكن .

وزحف خالد بالمسلمين نحو الروم . وكان « جرجة » يقاتل مع المسلمين ، ويحس أنه يحارب من أجل دينه .

يومذاك التحم الرجال ، وصال خالد وجال ، حتى لَيَظُن من يراه أنه جاءته قوة إلهية تجعله يغلب مئات الرجال .

كانت النساء العربيات يهتفن لأبطالهن ، وهن مفعمات بالحماسة ، مؤمنات بأن النصر لرجالهن . وزغردن في حومة المعركة ، وتحرّكن في أرضهن ، وهن يهتفن : يا أبا سفيان ! وينادين غيره من الأبطال العرب .

واستثارت النخوة والشجاعة « جويرية بنت أبي سفيان » وكانت مع حشد النساء ، فامتطت جوادها ،

وانطلقت كالعاصفة تهب على الروم فتقصفهم قصفاً .

لقد فضّلت هذه البطلةُ العربية أن تمارس الحرب ، وتقاتل أعداءَ الله والرسول ، وهي واثقة من شجاعتها وشجاعة قومها . نعم ، إنها اشتركت في قتال يوم واحد ، لكنها أبلت فيه بلاءً حسناً ، فاقبلت عليها أخواتها من النساء العربيات يهنّئنها ويثنين على بطولتها .



هكذا كانت المرأة العربية ، فارسة ، وبطلة .

٧

النصر العظيم

وغربت الشمس ، فخيّم الليل على الجيشين · وكان الروم قد تزعزعوا وخارت عزائمهم والواقع إنهم ما كانوا يعتقدون أن رجلاً واحداً كخالد بن الوليد يقضي على العشرات منهم دون أن يصاب بأذى ! إن هذا لأمر عجيب · وبدأوا يشكّون بقدرتهم · ولم يفطنوا إلى أن خالداً يحارب من أجل الدين ، والله ينصر أمثاله .

وورد البريد من المدينة · فأُحضر الساعي إلى خالد في خيمته . وساله عن أنباء المدينة . فاسرّ له حامل الرسالة :

ـ لقد مات أبو بكر .

فوجىء خالد بخسارة لا تعوّض · لقد اعتقد ان الله أختار أبا بكر الصدّيقَ الأمينَ ليخلُف رسول الله ﷺ

مثلما اختار خالداً ليكون سيف الله · وان موته في مثل هذا الوقت يؤثر في معنوية الجند المسلمين ·

وأضاف الساعي قائلا :

ـ وأصبح الخليفة عمر بن الخطّاب .

عندئذٍ تأثّر خالد . ما كان « أبو سليمان » على وفاق تام مع عمر بن الخطاب . ولم يكن عمر خصمَه ، وإنما كان يرى فيه عنفاً وقسوة · بينما اعتقد خالد ان سيف الإيمان لا يرحم المشركين ·

بقي خالد صامتاً ، يحاول تخيّل المستقبل . لكن الساعي أردف يقول :

ـ وقد عيّن الخليفة أبا عبيدة أميراً على جيوش المسلمين والبلاد المفتوحة . وهذا كتاب تعيينه .

الآن كان على خالد أن يُثبت حكمته . وقد فعل . فلم يكن « سيف الله خالد » محارباً وحسْب ، وإنما كان ثاقب الفكر ، بعيد النظر ، عبقرياً في حسن التدبير ، متفانياً من أجل الإسلام .

وأدرك خالد أن الأمر لا يحتمل أقلّ خطأ . فإذا

شاع خبر وفاة أبي بكر ، وتولـّي عمر الخلافة وتعيين أبي عبيدة فقد ينقسم الجنود .. وهم في أشد حاجة إلى الوحدة والتكاتف والتعاضد . أليس الروم ما يزالون يصارعونهم؟ بلى . والمهمّ في نظر خالد أن يضمن انتصار المسلمين .

لذا قال للساعي :

ـ أعطِني الكتاب واكتم الأمر حتى نفوز بالنصر .

وأخذ خالد كتاب الخليفة الجديد ووضعه في جُعبته .

ثم انطلق قبيل الصبح يشجّع الأبطال المسلمين على الحرب ، ويجول بين رجاله وهو يقول :

ـ هذا يومٌ له ما بعده ! هذا يومٌ له ما بعده !

وكان خالد يقصد بهذا القول أنه يومٌ يتوقف عليه مستقبل العرب ومصيرهم .

وكرّ المسلمون على الروم ، وكانوا كالصاعقة لا تخيفهم الرماح والسيوف ، ولا يهابون الموت .

كانت الروح المعنوية لدى المسلمين عالية . وكان الروم

يشعرون بالضعف على الرغم من كثرة عددهم .

وصاح خالد بجموعهم :

ـ أيهـــا الروم ! والله لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا ٠

لقـد آمن خالد بعدالة قضية الإسلام ٠ وآمن بالنصر ياتيه من عنـــد الله ولو كان الروم ستة أضعاف المسلمين عدداً ٠

ونشبت على جناحي قلب الجيش .

وراح عكرمة والقعقاع ، حاميا الجناحين، يُغيران. وارتجز عكرمة النشيد الذي كان يشبه الموسيقى الحربية. فقـــال :

يا ليتني ألقاك في الطـّراد [1]

قبل اعتزام الجحفل [2] الورّادِ

---

(١) الطراد : تسابق الفرسان .

(٢) الجحفل : الجيش .

وتطارد الفرسان . وتضعضع الروم . وأغار خالد على صفوف الروم ، فتبعثرت ، وتمزقت ، وشردت خيلهم . وبدأ فرسانهم يدبرون هاربين . وفتح لهم المسلمون الطريق . لقد أرادوا لهم الهزيمة فانهزموا .

ثم أقبل المسلمون على مشاة الروم ، واقتحموا عليهم الخنادق . فانهدم جدار الروم الذي كوّنوه من المشاة .

يومذاك سقط المقيَّدون بالسلاسل في وادي الياقوصة. وقُضي على الروم في تلك المعركة التاريخية التي كانت بداية نهاية دولة الروم .

ما كادت الشمس تغرب ، ويخيّم الليل حتى خلت ساحة المعركة ممن كان يقاوم المسلمين. وبلغت خسائر الروم مئة وعشرين ألفاً من الرجال . أما المسلمون فقد خسروا ثلاثة آلاف . وكان القادة المسلمون يبتهجون للجروح الحربية ، وهم ينتزعون أعظم نصر على دولة الروم .

وبعد انتهاء المعركة اجتمع خالد بأبي عبيدة وسلّمه

كتاب الخليفة وأخبره بما حدث .. فعجب أبو عبيدة وأكبر حكمةَ خالد وجرأته وإخلاصه ، كما أكبر عبقريته العسكرية التي أنقذت المعركة مما كانت ستؤول إليه لو حدث تغيير في القيادة أثناء التحام الجيشين .

٭

اليرموك : درس في الايثار

بعد معركة اليوم الأول، وقبيل ان يطلع صباح اليوم التالي نشِط المكلَّفون بتضميد الجراح ، ونقل الجرحى ومساعدة من يحتاج إلى المساعدة في ميدان القتال . وكان واحد من هؤلاء ساقياً ، يحمل قِربة من الماء وإناءً يسقي به العطاش من الجرحى .

وسمع هذا الساقي صوتاً يئن :

ـ ماء .. ماء .. قتلني الظما ..

فأسرع الساقي إلى مصدر الصوت ، فوجد عكرمة بن أبي جهل ، البطلَ الذي دافع في الصباح عن خيمة خالد ، وخاض بعد ذلك معركة عنيفة ، أظهر فيها شجاعة نادرة. ها هو الآن طريح الأرض والدم ينزف من جراحه . صبّ الساقي الماء في الإناء وقرّبه إلى فم عكرمة .

وما كاد عكرمة يفتح فمه ليتلقى ما يصب فيه ، حتى سمع أنين جريح آخر يطلب الماء. فأبعد عكرمة الإناء عن فمه ، وأشار إلى الساقي بيده قائلاً بصوت ضعيف :

ـ اذهب إليه فلعلّه أكثر ظمأً مني !

وتوجّه الساقي إلى الجريح الآخر ، وقدم الماء إليه ، ولكنه ما كاد يفعل، حتى ارتفع صوت جريح ثالث يطلب ماء... فنحّى الجريح الإناء عن فمه وأشار إلى الساقي أن يسرع إلى مصدر الصوت ليبلّ ريقه .

أسرع الساقي إلى الجريح الثالث .. فوجده قد لفظ أنفاسه ..

فعاد إلى الجريح الثاني ، فاذا هو قد مات أيضاً ، فاسرع الى عكرمة فاذا هو جثة هامدة كذلك ..



اليرموك · درس في الإيثار

حار الساقي في أمره ، وعجب كيف ضحّى كل من هؤلاء الأبطال بنفسه ، من أجل رفيقه ، فلم يقنعوا ببطولتهم في المعركة ، بل أضافوا إليها بطولة لا تقلّ عن بطولتهم في القتال ، عندما آثر كل واحد منهم رفيقه على نفسه ، ودفع كل منهم حياته ثمناً لهذا الإيثار العظيم .

٨

فتح دمشق

فضَّ أبو عبيدة بن الجرّاح كتـــاب الخليفة عمر ، وقرأ فيه :

« أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ، ويفنى ما سواه ، وقـــد استعملتك (جعلتك قائداً) على جند خالد بن الوليـد . فقـم بأمرهم الذي يحق عليك . لا تقدِّم المسلمين إلى هـلَـكةٍ ، رجاءَ غنيمة . ولا تُنْـزِلهم منزلاً قبـل أن تستريده لهم (أي تبعث من يستطلع أمره لهم) ، وتعـلم كيف مأتاه . ولا تبعث سرية إلا في كثف (كثـــير) من الناس. وإياك وإلقاء المسلمين في الهـلَـكة وقد أبلاك الله بي ، وأبلاني بك . فغُـضَّ بصرك عن الدنيا ، وألهُ قلبَـك

عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ».

أطاع خالد خليفته . وأصبح تحت إمرة أبي عبيدة الذي كلف بشير بن كعب الحميري أن يتولى شأن اليرموك بعد إحراز النصر. وسار هو مع خالد متجها إلى دمشق . ولما قطع مسافة قصيرة في سهول حوران ، علم أن الروم اجتمعوا بموضع يدعى « فِحل » وجاءتهم نجدات من دمشق

وتساءل أبو عبيدة : هل يبدأ بفحل أم بدمشق ؟

ثم قرر أن يستشير الخليفة عمر في ذلك . وأقام في « الصفر » حتى جاءه الجواب . وقد أمره الخليفة أن يبدأ بدمشق ، فهي حصن الشام ، ومقر قائد الروم . وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون أمامهم لئلا يسرعوا إلى نجدة دمشق . وإذا تم النصر سار هو وخالد إلى حمص ، وترك شرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص بالأردن وفلسطين .

لو كانت القيادة لخالد لتصرف من تلقاء نفسه

لكنه يوازن بين فائدة فتح المدينتين والظروف التي تحيط بهما .

وإذا تصرّف خالد من تلقاء نفسه فلا يعني ذلك أنه يخالف أوامر رؤسائه . كلا ، وإنما هذا يعني ان للقائد الحربي حقّ اختيار المعركة التي يقدّر النجاح فيها ، لأن المحارب على أرض المعركة أدرى من القائد البعيد عنها .

كان أبو عبيدة ابن الجراح يفضّل السلامة وعدم المخاطرة . وهو الرجل الذي اشتهر بوداعته وهدوئه ورزانته .

وإذا كان الرسول ﷺ قد لقّب خالداً بسيف الله ، فإنه قال في أبي عبيدة :

« لكلّ أمة أمين ، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة » .

أرسل أبو عبيدة جماعة من المسلمين إلى فحْل ، فنزلوا قريباً منها . فما كان من الروم إلا أن أسالوا الماء حولها فأصبحت الأرض موحلة .

وأراد أبو عبيدة أن يقطع العون عن دمشق ، ويعزلها عن المدن التي ما زالت خاضعة لسلطة الروم ، فارسل جنداً أقاموا بينها وبين حمص ، وجنداً آخرين أقاموا بينها وبين فلسطين . وتقدم أبو عبيدة بجيشه الجرّار إلى دمشق ، يرافقه القادة المسلمون في حملته هذه . وعسكر خالد بن الوليد عند الباب الشرقي ، وهو أحد أبواب مدينة دمشق وأمنعها ، كما نزل أبو عبيدة عند باب الجابية ، وعمرو بن العاص عند باب توما ، ويزيد بن أبي سفيان عند الباب الصغير .

هكذا تمّ تطويق دمشق من جميع نواحيها . وراح المسلمون يضيّقون الحصار عليها ، وهم يرمونها بالمنجنيق.

ودام حصار دمشق سبعين ليلة ، وظلّ الروم أثناءها يعتصمون بالمدينة راجين أن يأتيهم العون ، أو يحلّ الشتاء القارس فيُخفق المسلمون من شدة الصقيع.

ولقد أرسل « هرقل » نجدةً إلى دمشق ، لكن الجند الذين بعثهم أبو عبيدة فأقاموا بين حمص ودمشق ـ اعترضوا فرسان الروم القادمين وردّوهم على أعقابهم .

وعلم أهل دمشق بما فعل المسلمون مع نجدات الروم ، فخاب أملهم ، ووهن عزمهم . لقد أيقنوا أن المسلمين الذين انتصروا في اليرموك لا بدّ أن يفتحوا دمشق مهما طالت مدة الحصار .

كان حاكم دمشق آنذاك البطريق « نسطاس » ، وأثناء حصار العرب لدمشق وُلد للبطريق ولد ، فاحتفل به وأقام الولائم ، وغفل جنده عن مواقعهم . ولم يكن أحد من المسلمين يعلم بذلك سوى خالد .

فلما خيّم الليل نهض خالد وجنده وبعض قادته ، ومنهم القعقاع بن عمرو ومذعور بن عديّ . وقال لجنده :

- إذا سمعتم تكبيراً في أعلى السور ، فاصعدوا إلينا واقصدوا الباب .

ثم ان خالداً وأصحابه تقدّموا الى السور حتى وصلوه ، فرموا بالحبال على الشرفات . فعَلِقَ منها حبلان وصعد القعقاع ومذعور ، فأثبتا الحبال بالشرفات . وكان المكان أشد المواقع تحصيناً .

بعد ذلك صعد خالد وجماعته الى أعلى السور ،

و مروا المؤذّن بالتكبير ، فجلجل الهتاف بذكر الله فوق الباب الشرقي من أبواب دمشق ..

عند ذاك أسرع المسلمون إلى البـاب ، وقضوا على حرّاسه ، وفتحوا الباب الشرقي .

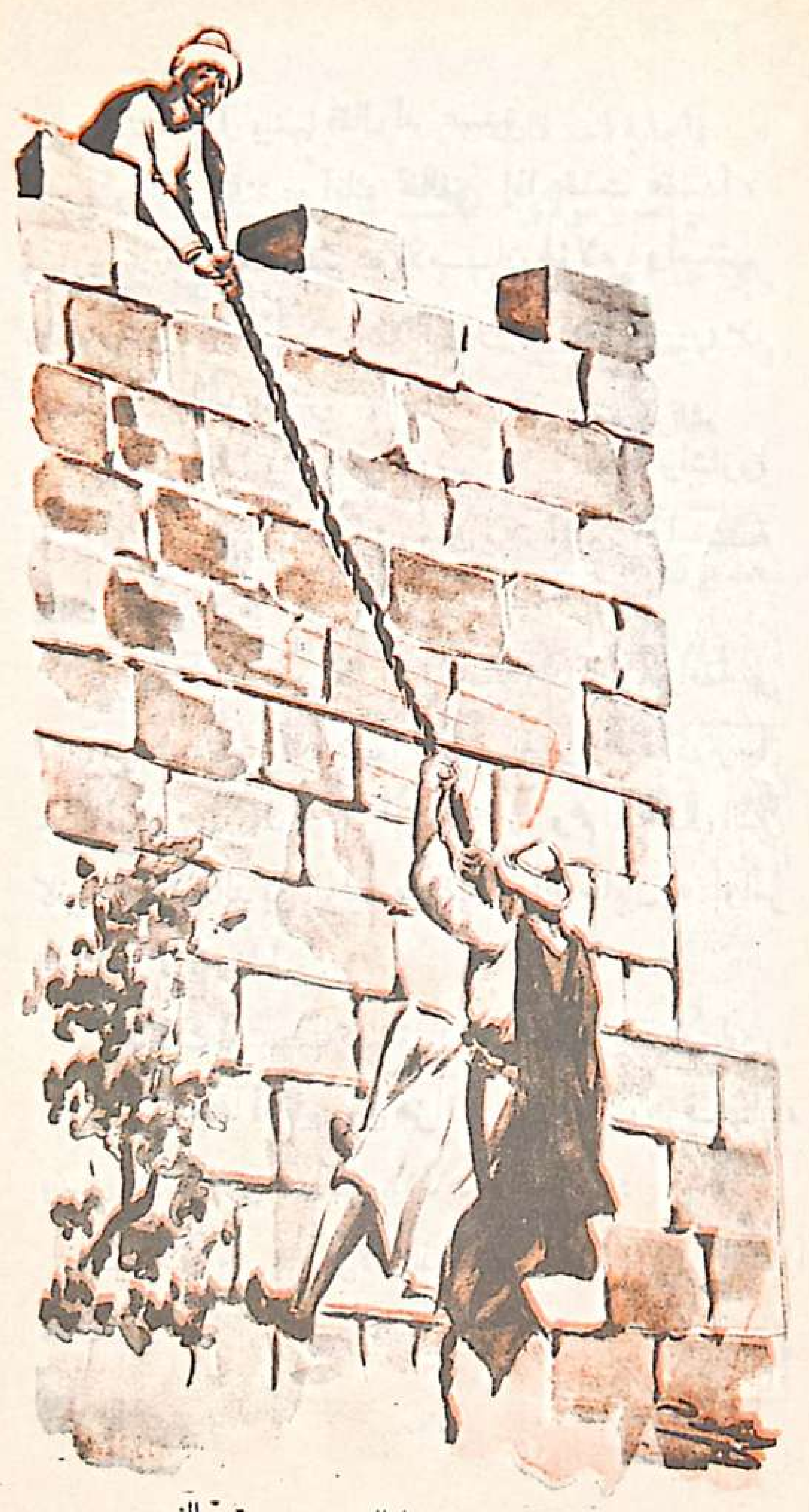
وقد ذُهل الروم ، وطار صوابهم . ودبّ الرعب في كل حيّ من أحياء دمشق .

لكن الروم الذين كانوا يخافون خالداً أكثر من أي قائد مسلم آخر ـ أسرعوا الى باب الجابية وطلبوا الأمان والمصالحة من أبي عبيدة . فكتب لهم أبو عبيدة الأمـان ، ودخل المدينةَ من باب الجابية . ورافقة في دخولهـا خمسة وثلاثون صحابياً استقبلهم مئةٌ من زعماء الروم .

والتقى خالدٌ أبا عبيدة وسط المدينة . وكان قد دخلها عُنوةً بينما دخلها الآخر صلحاً . ولمـا رأى أبو عبيدة خالداً يفتك بالروم ساءه أن ينقض العهد الذي قطعه على نفسـه لسكان دمشق . فقال لخالد :

ـ يا أبا سليمان ! لقد فتح الله المدينة صلحاً على يديّ .

وكفى الله المؤمنين القتال .



خاطرا بنفسيهما وصعدا السور .. وتم النصر

واشتد الجدل بينهما فقال أبو عبيدة :

ـ والله ما ظننتُ أنك تخالفني إذا عقدتُ عقداً ، ورأيت رأياً . لقد أعطيت الأمان لهؤلاء . وأمّنتهم بالله وبرسول الله ﷺ ، ورضي بذلك من معي من المسلمين . والغدر ليس من شيمتنا.

واجتمع كبار المسلمين الذين دخلوا المدينة وأشاروا ألى خالد أن يوافق أبا عبيدة . وأن يكتبا إلى الخليفة بذلك ويطلبا منه الكلمة الفصل .

ووافق خالد على ذلك . ثم جاء الجواب بالموافقة على أمان أبي عبيدة ، كما طلب الخليفة من خالد أن يرسل جند العراق إلى سعد بن أبي وقاص . وهم الرجال الذين كانوا بقيادة خالد بن الوليد ، فنفّذ « أبو سليمان » أوامر الخليفة بطيبة خاطر .

بعد ذاك أصبحت دمشق مدينة مفتوحة للمسلمين . وذُعِر الروم مما أصابهم من هزائم ، فاستغرب هرقل ، وسال قادته الذين أدركوه بعد هذه المعارك :

ـ أخبروني عن هؤلاء الذين تحاربونهم؟! أليسوا بشراً مثلكم ؟

فأجابه أحد قادته :

ـ نعم يا مولاي . لكنهم اذا حملوا علينا صدقوا ، وإذا حملنا عليهم صبروا ، وحين نحمل عليهم نكذب ، وحين يحملون علينا لا نصبر .

فقال هرقل :

ـ الويلُ لكم ، لقد خسرتم المعارك لأنكم لا تصدُقون . فعليكم بالصبر ، وإلا فإن الهزائم متوالية .

ولقد حاول قيصر الروم أن يشحذ همّة قادته ليستعيدوا بعض المدن المفتوحة ، وليدافعوا عن المدن التي قد تتعرّض لهجوم المسلمين . لكن ، أين هم من زحف المسلمين !

٩

فتح بلاد الشام

ولّى أبو عبيدة يزيدَ بن أبي سفيان على دمشق ، وسار بجيشه المظفّر الى « فِحل » . وكان معه عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وشُرحبيل بن حسنة ، وعياض بن غَنْم .

وبعد ان سقطت دمشق في أيـــدي المسلمين يئست حامية « فحل » من الدفاع عن نفسها . كان خالد يمضي في المقدّمة ، فعَلِمَ من المسافرين أن الشيطان وسوس للروم فعزموا على استعادة دمشق بجندٍ أعدّوهم ليأخذوا المدينة على حينِ غرة .

وكُلّف خالد بتعقب « توذر » الذي أرسله هرقل

والتقى الجيشان مع غروب الشمس . ولم يطلع الصبح حتى خلا المكان من الروم بعد أن قضى عليهم خالد وكتائبه .

كذلك دارت معركة بين الروم والمسلمين كان فيها أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان ضد « شيس » القائد الرومي . وانتصر المسلمون فيها وطهّروا « فِحل » من حاميتها .

بعد هذا قصد أبو عبيدة حمص ليستكمل فتح بلاد الشام . ووصل خالد بن الوليد المدينة بعد أبي عبيدة ، لأنه تعقّب الروم في السهول وهزمهم .

كان هرقل قد وعد أهل حمص بالمدد والنجدة . وقال لهم :

ــ لقد علمتُ أن طعام هؤلاء المسلمين لحوم الإبل ، وشرابهم ألبانها ، فلا تقاتلوهم الا في كل يوم بارد ، واصبروا عليهم حتى ياخذ البرد منهم ماخذاً . وإذا صبرتم لا يبقى منهم أحد حتى فصل الصيف .

ورحل هرقل من حمص وقصد « الرُّها » في شمال سوريا .

ولقد عمدَ أهل حمص إلى تنفيذ وصية هرقل ، فكان جندهم يحاربون المسلمين في أيام البرد ، ويختبئون طوال الأيام الدافئة وراء الأسوار . لكن المسلمين استطاعوا أن يغلبوا من حاربهم أيام البرد . وبدأ الروم يتراجعون وقد أثّر عليهم البرد أشد التأثير .

ولما ولّى فصل الشتاء وشاع الدفء في الأرض ، يئس الروم في حمص ، وراحوا يستشيرون شيوخهم . فقال لهم أحدهم :

ـ عليكم ان تصالحوا المسلمين .

وأجابه قائد الحامية :

ـ كيف نصالحهم وما زلنا في قوتنا وعزنا ؟

فقال له الشيخ :

ـ إن هؤلاء قوم يصبرون ، ويعاندون ، ولا رادّ لسلطانهم . فان صالحتموهم أمنتم سلامتكم بميثاق يعطونه . ولعمري ما سمعت قط أنهم نقضوا عهودهم .

بدأ المسلمون يكبّرون فخاف سكان حمص . وأسرع الجميع ينادون :

ـــ الصلح ! الصلح !

فوافق أبو عبيدة على مصالحتهم كما جرى في دمشق .

ولما فتحت حمص أبوابها للمسلمين أرسل أبو عبيدة خالداً الى « قِنّسرين » ليتمّ فتح المدن الشمالية .

وسار خالد حتى وصل « الحاضر » حيث التقـــاه الروم ، على رأسهم قائدهم « ميناس » ثاني رجـل في دولة الروم بعد هرقل . فنشب القتال . ولم يفعل خالد أكـثر مما فعل في حروبه السابقات ، فهو سيف الله المسلول .

هناك قضى على ميناس ، ومن معه . وأراد تطهـــير المدينة ، فخرج اليه وجوهها وأعلموه انهم عرب ، يوالون العرب المسلمين ، وقد كانوا في ضِيق من الروم . وتمنّـوا أن يجاهدوا مع المسلمين في حربهم . فأمّـنهم خالد . ولم يُصَـبْ أحدٌ منهم بأذى .

وتابع خالد مسيره حتى نزل على قنّسرين ، فدافـع الروم عنها ، فحاصرهم جيش المسلمين . ولمـا يئس الروم من القتال طلبوا الصلح من خالد ، لكن القائد العربي لم

يقبل إلا بخراب المدينة ـ لأنها لم تطلب الصلح الا بعد أن بذل حماتها كل ما في وسعهم .

ثم إن خالداً انطلق في سهول سوريا الشمالية يقضي على ما تبقى فيها من الروم . وكان ظلّه يتقدمه واسمه يرعب الأعداء ' حيث كانوا .

واضطّر هرقل أن يغادر « الرُها » وينزل بـ « شمشاط » ومنها ينفذ إلى القسطنطينية ، ولكنه قبل أن يغادر سهول سوريا نظر الى بلاد الشام وقال :

ـ السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده .

ولحق بهرقل أحد جنود الروم ، وكان أسيراً فاطلق المسلمون سراحه ، فساله هرقل قائلاً :

ـ كيف رأيت أولئك المسلمين ؟

فأجابه الجندي :

ـ انهم قوم يصومون في النهار ، ويقومون للصلاة في الليل ،وهم يوفون بالعهد ، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، لا يظلمون أحداً ، بل يتناصفون فيما بينهم .

وتذاك تذكّر هرقل ذُلك الرجلَ الذي بعثه الرسول



.اطور يستفسر عن سر شجاعة العرب وانتصارهم

ﷺ مع كتاب يدعوه فيـه إلى الإسلام ، وكيف عرض الكتاب على البطارقة الروم ، وأراد أن يقبل بذلك بعـد أن تأكد من عدالة الإسلام . لكنه خشي غضب البطارقـة الذين رفضوا الدعوة . فقـــال آنذاك للرجـل الذي يحمل الرسالة :

ـ لقد علمت أن صاحبك نبيٌ مرسل . ولكني أخاف من الروم على نفسي ، ولولا ذلك لاتبعته .

بينما كان هرقل يتراجع إلى القسطنطينية ، وجيوش المسلمين تطارده وتفتح المـــدن وتنشر الدين الحنيف ، انطلق خالد وجيشُـه من بلاد الشام لمطاردة الروم . ولاقاه عمرو بن مالك الذي كان قد انطلق من الكوفة ، وكذلك سار لملاقاتهما عبد الله بن المعتم من الموصل ـ فكان تلاقيهم أولَ تجمّـع لجيوش المسلمين من مختلف المدن المفتوحة .

كان لا بدّ للمسلمين من إحراز الانتصارات المتوالية ، ولا بدّ للروم من الهزيمة المتكررة ، وساد المسلمون على بلاد الشام كلها .

وبقي سيف الله خالد بن الوليد القائـد الظافر الذي

لا يهادن العدو · فـاذا التقى جيشه جيشَ العدو لا يترك جنده ينظرون بعضهم إلى بعض وإنما يعجّـل المعركة ، لأنه يكره الصبر في مثل هذه المواقف ·

وكانت طريقته في المعركة أن يوجّـه ضربات المحاربين إلى قائد الأعداء ، فقد كان يعتقد ان الجيش كالجسم ، فاذا قضي على الرأس سقط الجسم كله ·

وإذا قضى على القائد تضعضع جنده ، وخاب أملهم ، فيختل نظامهم ، ويخسرون المعركة ·

كسب خالد بن الوليد مالاً وفيراً من غزواته في بلاد الروم · ولما عاد بالنصر والسلطان والمـــال راح الشعراءُ وطلاّب المال يستعطونه · فمنح فيمن منـح الأشعثَ بن قيس الكِـندي عشرة آلاف درهم ·

وعلم الخليفة عمر بما جاء به خالد بن الوليـد ، وكان أميرُ المؤمنين على علم بكل ما يعمل خالد ، فقال بعد أن فتح خالد « قنّسرين » :

ـ لقد جعـل خالد نفسه أميراً · رحم الله أبا بكر . لقد كان أعلم مني بالرجال ·

غضب الخليفة من إسراف خالد، إذ ساءه أن يتصرّف هذا الرجل البطل بأموال المسلمين. كان يريد من سيف الله أن ينزع عنه العنف، ولا يتصرّف إلا وفق مشيئة الخليفة.

وكتب الخليفة عمر إلى أبي عبيدة أن يُحاكم خالداً على عمله.

١٠

الخليفة وسيف الله

طلب الخليفة من أبي عبيدة ـ الذي تولى شؤون بلاد الشام ـ « ان يدعو اليه خالداً ويعقله بعمامته، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمه من أين أعطى المال إلى الأشعث بن قيس : هل هو من ماله ، أم من غنيمة حرب ؟ فان زعم أنه من إصابةٍ أصابها يكون قد أقرّ بخيانة . وإن زعم أنه من ماله ، فقد أسرف . » كما طلب إليه أن يعزله على كل حال ، ويتولى أبو عبيدة الأعمالَ التي كان يقوم بها خالد .

كان أبو عبيدة الأمين حريصاً على تنفيذ أوامر الخليفة بأسلوب رصين هادىء ، فكتب إلى خالد أن يحضر إليه .

وحين تلقّى خالد كتاب أبي عبيدة لم يتلكأ في تلبية الدعوة ، إذ كان هذا الفارس العظيم مطيعاً لرؤسائه على الرغم من ميله إلى المبادهة في المعارك .

وعندما وصل خالد مجلسَ أبي عبيدة ، جمع أبو عبيدة أعوانه وجلس إلى المنبر وقال :

ــ لقد أعطيتَ الأشعثَ بن قيس عشرة آلاف درهم ، فهل هذا المبلغ من مالِكَ يا خالد ، أم من أي غنيمة ؟

لم يجبه خالد . وسكت أبو عبيدة فلم يكرّر السؤال .

عندئذٍ نهض بلال بن رباح ، مؤذّن الرسول ، وقال :

ــ إن أمير المؤمنين أَمرَ فيك كذ وكذا .

وتناول قلنسوة خالد عن رأسه،وعقله بعمامته.وقال:

ــ ما تقول ؟ أمن مالِكَ أم من غنيمة ؟

فأجاب خالد :

ــ بل هو من مالي .

حينئذٍ أعاد بلال قلنسوتـه ، وأصلح عمامته بيده .
وقـــال :

ـ علينا أن نسمع لوُلاتنا ونطيعـهم .

أقام خالد دون أن يدري إذا كان معزولاً من عمله أم غير معزول ، وكان أبو عبيدة لا يريد أن يجرح شعور ذلك البطل العظيم الذي وهب نفسه لإعلاء كلمة الإسلام .

لكن خالداً ضاق ذرعاً بما حدث له . كانت له وجهة نظر في الحرب . وهذه النظرة لقيت النقد من عمر الذي كان يقول للخليفة أبي بكر رضي الله عنه :

ـ إن في سيف خالد رَهقاً وشدّة .

وكان يعني بذلك القسوة والعُنف. ولم يحاول الخليفة انتقاص شان خالد بن الوليد وإنما كان يريد أن يعصِم هذا البطل من أقلّ زلّـة تؤخذ عليه .

وكانت سياسة الخليفة عمر سياسةً أخلاقيـة مهذّبة للعرب، فحرص على أن يتولى الخلافة ومسؤولياتها ويحملها

سبيلاً لإسعاد المسلمين ونفع العالم، وذلك ببذر بذور الخير بين الأُمم في ذلك الزمان ·

ووضع عمر دستوراً للحرب فكتب إلى قادته بعد خلافته يوصيهم باسلوب الحرب الذي يفضّله فقال :

« باسم الله ، وعلى عون الله . وامضوا بتأييد الله بالنصر ، وبلزوم الحق والصبر . وقاتِلوا في سبيل الله ، مَن كفر بالله . ولا تعتدوا فان الله لا يحب المعتدين . ولا تجبُنوا عند اللقاء ، ولا تمثّلوا (اي لا تشوّهوا جثة) عند القدرة ،ولا تسرفوا عندالظهور (النصر) ولا تقتلوا هرماً ، ولا امرأةً ، ولا وليداً. وتوقّوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند حمّة النهضات [1] ، وفي شنّ الغارات . ولا تغلُّوا عند الغنائم · ونزّهوا الجهاد عن عَرَض الدنيا ، وأبشروا بالرّبح الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

والواقع أن هذا الدستورُ الذي وضعه عُمر في صدر

---

(١) النهضات : شدة القتال .

(٢) أي لا يأخذ أحدكم شيئاً من الغنيمة قبل اقتسامها .

الإسلام قد فاق كل المعاهدات الدولية التي سنّت شرائع الحرب والسلم !

لهذا كان الخليفة حريصاً على سلامة خالد بن الوليد وأميناً على بطولته . وربما تشابه الرجلان في الأخلاق ، فالمحارب كخالد ينفر من كل أمر غير لائق ، ويشمئزّ من المداهنة ، ويُكبر الصراحة والصدق . والخليفة كعمر يُعزّ الصدق ، ويكرم الشجاعة ، ويأبى القسوة .

وما أروع قول الفاروق لعمرو بن العاص :

«متى استعبدتم الناس وقد ولَدتهم أمهاتهم أحراراً!؟».

أليس هذا القول دليلاً على استقامة الخليفة عمر الذي كان يريد من المسلم أن يمثّل مكارم الأخلاق في أوجها وأجلى معانيها !

كان هذا الرجل يُكبِر خالداً ، ويحترمه ، ولا يريده إلا مسلماً مخلصاً لإسلامه ، سلمت يمناه من كل أذى ، وعفّت نفسه عن كل شيء إلا الجهاد في سبيل الله .

بقي خالد عند أبي عبيدة حتى بلغته دعوة الخليفة إليه ، فانطلق قاصداً المدينة ، مدينة الرسول .

راح « سيف الله » يقطع السهول والوديان ، وهو على صهوة جواده يتذكّر زحفه على الروم . كم من معركة خاضها وتكسّرت رماح الأعداء دونه ! وكم من مرة طلب الشهادة في سبيل الله ، لكن الله ادّخره ليرفع من شان الأمة !

تذكّر خالد موقعة « دومة الجندل » عندما دخل على أعدائه وكان مغنّيهم ينشدهم في الليل :

أظنُّ خيول المسلمين وخالداً

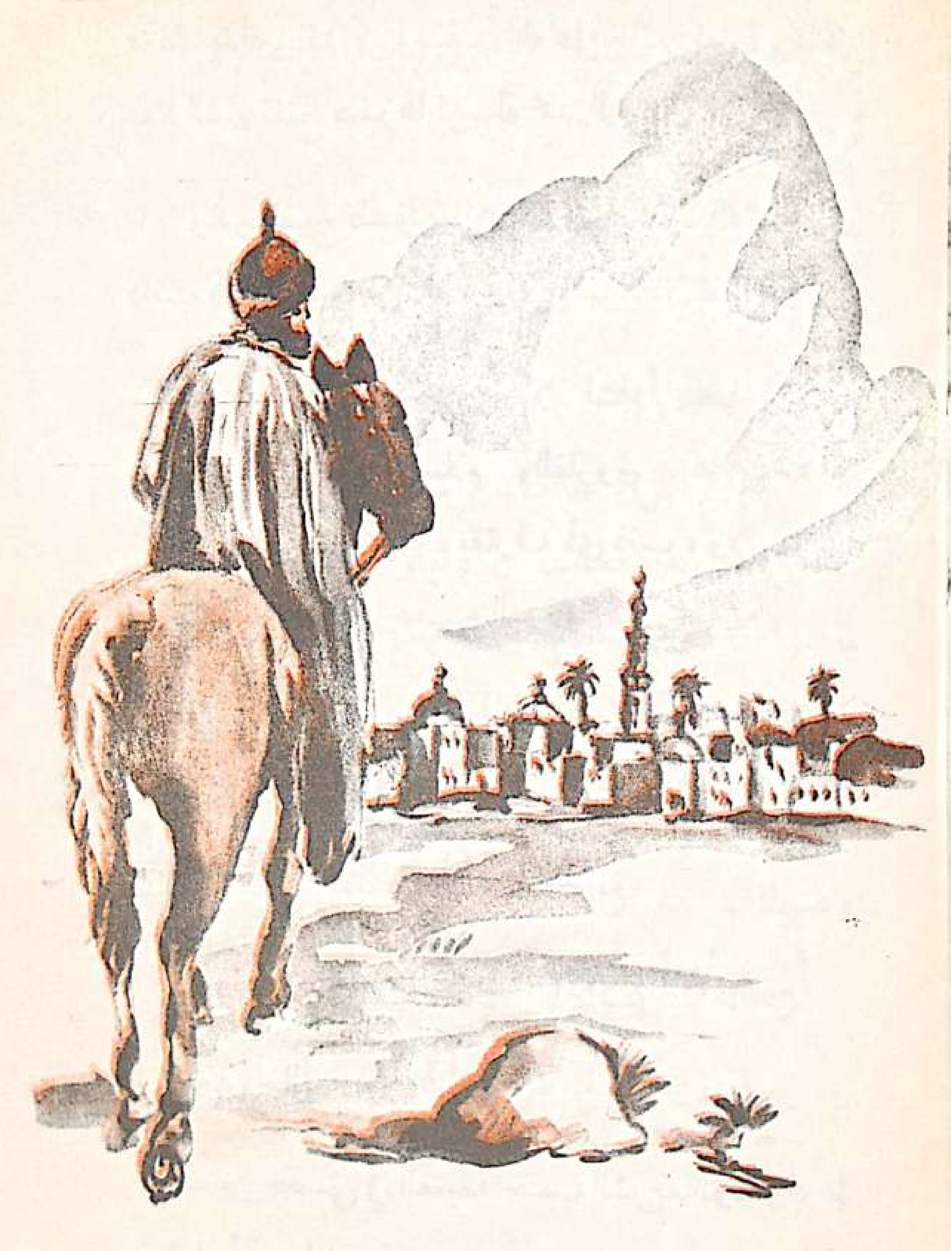
ستطرقكم قبل الصباح من البِشْر [1]

واسترجع إلى ذهنه معركة اليرموك . تلك المعركة التي كانت كما قال فيها : « هذا يومٌ له ما بعده » .

واسترسل نظره في السهول والأودية مطمئناً إلى ما

---

(١) البشر : قرية قريبة من دومة الجندل .



انها وقفة صاحب المجد يتذكر أمجاده
ويستمد للمحافظة عليها

عملت يداه . لقد كان سيفَ الله على المشركين ، وها هي بلاد الشام تفتح صدرها لرسالة محمد الرسول العربي .

وغمر الفرح صدره . إن بلاد الشام جنة الدنيا ، وقد دانت لأُمته بنصر من الله . . الا يفخر ؟ ألا يعتز ؟

لم يبق رومي واحد في بلاد الشام . وها هم العرب ينعمون كلهم بعدالة الإسلام ! والفاروق .. هل يلومه على شيء ؟ وماذا فعل ؟ إنه لم يقترف أي ذنب ، ولا يقبل أن ينهر طالبَ مال أو يخبىء الدراهم .

وصل خالد بن الوليد المدينة . ودخل على عمر في مجلسه . فقال الخليفة :

صنعتَ فلم يصنعْ كصُنعك صانعْ

ومـــا يصنع الأقوامَ فالله يصنعُ

وقال خالد :

– من حصتي في الغنيمة حسب الشريعة. وما زاد على ستين ألفا فهو لك .

وقوَّم عمر الغنائم ، وأحرز لبيت المال عشرين ألفاً .
ثم قال :

– والله إنك عليَّ لكريم . وإنك لي لحبيب . ولن تعاتبني على شيء بعد اليوم .

وكتب إلى أمير بلاد الشام قائلا :

« إنني لم أعزل خالداً عن سخط أو خيانة . ولكن الناس فُتنوا به . فخفت أن يوكلوا به . وأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا سبب فتنة »

وحين ودَّع خالد عمر مستاذناً منه بالرَّواح الى حمص ، حيث اختارها سكناً له حتى الموت ، التفت الى عمر ، وضحك .

فساله عمر :

– ماذا يضحكك يا أبا سليان ؟

فقال خالد :

– إنني أرجو أن تكون ساقك المكسورة قد شفيت .

فأدرك عمر ما يرمز اليه خالد ، فأجاب :

ـ هيهاتَ ، هيهات ... تلك لعبة صبيانية طويناها في الجاهلية .

وانطلق خالد الى حيث اختار وجهاً له .

١١

عبقرية خالد

كان خالد رجلَ رأيٍ وتدبير قبل أن يكون رجل صراع وحرب. كان يفكر أولاً ثم يرسم الخطّة، ثانياً، وينطلق في تنفيذ ما خُطّط له دون تردد. وقد اعتاد هذا الرجل السيرَ في طليعة جيشه وكشف خفايا عدوّه ليكون على بصيرة من أمره.

وكثيراً ما ردّد قوله:

ـ لا تمكّنوا أعداءكم من آذانكم. ولا تردّوا المسلمين عن قتال أعدائهم.

وأحسن خالدٌ كسبَ الفُرص فلم يدع فرصةً واحدة

تفلت من يده. ففي حصار دمشق انتهز فرصة انشغال الروم بأفراح مولد ابن لحاكمهم، فقلب نتيجة الحصار رأساً على عقب، وحقق في ساعة واحدة ما لم يتم تحقيقه في سبعين يوماً.

وكان اسمه يسبقه إلى كل مكان يقصدة، فيخشاه أعداؤه قبل أن يصلهم. وكان أعداؤه يقدرون سجايا خالد وأخلاقه.

وقد سئل ذات مرة: بم كنت تفوز على عدوك؟

فأجاب:

ـ أبرز اليه في ميدان المعركة، وأنا أعتقد أنني ساقضي عليه، وهو أيضاً يعتقد أنني ساقضي عليه. فأكون أنا ونفسه عليه.

لم يكن « سيف الله » قائداً وحسب، إنما أميراً لجيشه، فيتقدم جنده، ويحارب كأنه فرد منهم. وإذا أصيب أحد من رجاله يبر به ويحسن معاملته. وهذا ما حدث بعد معركة اليرموك لما وجد رجلا وابنه جريحين، فاسند رأس الأب على فخذه ورأس الابن على ساقه، وراح

يمسح وجهيهما ويقطر الماء في حلقوميهما .

وكان قد من عادته أن يسير في الصفوف الأولى من جيش المسلمين ويشجعهم . وكم مرة قال :

ـ يا أهل الإسلام ! إن الصبر عزٌ ، وإن العجز فشل ، وإن النصر مع الصبر .

أما قسوة خالد فكانت على المحاربين فقط . فقد أنِفَت كبرياؤه محاربة الضعفاء ، والشيوخ والعجزة . وهو إذا قسا على الرجال الذين حاربوه فلا لوم عليه ، لأن القسوة في الحرب هي سنّة الحرب . فكيف إذا كان هذا البطل يحارب الأعداء في عقر دارهم ، وهو يقود القلّة ضد الكثرة !!

وتنكّر « سيف الله » لكل ما يخالف الشريعة وهدى الكتاب . فكان قائداً دينياً حكيماً يحرص على المسلمين أكثر من حرصه على نفسه .

وكان ينصّب أميراً على كل مدينة يفتحها . ويطلب إلى الأمير المعيّن ان يرعى النظام وينفّذ أحكام الشريعة

وتَجْبي الخَراج، ويقيم من يحمي مؤخّرة جيشه لئـلا يحاول الاعداء قطع الطريق عليه .

ولم يصَب خالد بغرور القادة المنتصرين عادة . وإنما عظُم إيمانه ، وتمسُّكه بالدين الحنيف ولانت عريكته كلما كثرت انتصاراته .

لكنه آثر الإيجاز في القول ، شأنه شان أي محارب ، فكان يكره الإكثار من الكلام . من ذلك أنه كتب إلى أمير الحيرة قبل أن يحاربه قائلاً :

– إني أدعوكم إلى الله وإلى عبادته ، وإلى الإسلام . فإن قبلتم لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبَيتم فالجزية . وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبّون الموت كما تحبون شرب الخمر .

وتحلّى خالد بالأخلاق السامية ، ومنها العفوُ عند المقدرة . وقد حدث له أن استدعى بنت هرقل بعد أن فتح دمشق وقضى على زوجها . ولمّا رآها في روعتها

وحسنها تلا قول الله تعالى : « وربُّك يخلق ما يشاء ويختار » ، ثم صرفها .

وبعد أيام أقبل عليه شيخ كان يرتدي مُسوحاً ، فتقدم من خالد ، وقال له : أنا رسول الملك هرقل . إنه يقول لك : لقد فعلتَ ما فعلت برجالي وقضيت على صهري . والآن إما أن تبيع ابنتي أو تهديها إليّ . والكرمُ شيمتكم وطبعكم . وأرجو أن يقع بيننا الصلح .

أجاب خالد رسول هرقل :

ـ قل لصاحبك ، واللهِ لا رجعت عنه حتى قضيت على مُلكه . أما ابنته فهي لك هدية .

وسلّمها للرسول ولم يأخذ فِديتها ، على الرغم من أن الفدية كانت أحد المبادىء الحربية في ذلك الوقت .

كان خالد عظيم الثقة بنفسه ، لا يبالي بأعدائه ، وقلّما يقيم لهم وزناً ولو كانوا أضعافَ أضعافِ جنده . لقد آمن دائماً بأن الجند « يكثُرون بالنصر ، ويقلّون بالخذلان » ،

لكنّه لم يتجاهل أبداً قـوة أعدائه وعددهم ، لأنه كان حريصاً على معرفة حقيقة الأعداء ومعنـوياتهم . فطبّق خلال فتوحاته الحربَ النفسية .

ولعلّ رأيه في حرب الكمائن التي تُعتبر جزءاً من حرب الفدائيين كان حتى الآن أفضل الآراء ، حيث قال :

« ينبغي أن يُنتخَب للكمين من الجند أهل جرأة وشجاعة ، وتيقّظ وصرامة ، ليس بهم أنين ، ولا سعال ولا عُطاس . ويُختار لهم من الدوابّ ما لا يصهل ولا ينهت (يُخرج صوتاً) . ويُختار لكمونهم مواضع لا تُفشى ، ولا تؤتى ، قريبة من الماء ، حتى ينالوا منه إن طال مُكثهم .

« وأن يكون إقدامهم بعد الرويّة والتشاور والثقة بإصابة الفرصة ، ولا يخيفوا سباعاً ولا طيراً ولا وحشاً . وأن يكون إيقاعهم كضريم الحريق ، وليجتنبوا الغنائم ، ولينهضوا من المكمن متفرّقين .. » .

وهب الله خالد بن الوليد الشجاعة والإقدام والرأي .
وكان يجلّ الخلافة ويحترم الخليفة فيتلقى أمره بالقبول والإجلال . على أن هذه الطاعة للخليفة لم تكن تسلبه إرادته أو استقلاله ، وإنما أفاد منها في تخفيف العنف وصقل عبقريّته الحربية . فامتاز عن غيره من عظماء القادة في العالم ، لأنه تمكّن أن يجمع بين الطاعة للخليفة والعمل برأيه .

واعتقد هذا البطل الفذّ أن المحارب الذي يعيش على أرض المعركة يحتاج إلى استخدام نظرته في الحرب ، على أن يحرز النصر دائماً . لذلك كان يُقدِم ، وقلّما يستشير غيره طالما لم يكن في حاجةٍ إلى المشورة . أما إذا طُلب منه أن ينفّذ خطة معيّنة فإن سيف الله كان حريصاً على إطاعة أولي الأمر منه .

وكان خالد حريصاً على كسب الفرص الحربية . لذلك كَرِه التباطؤ ، واعتقد أن الحرب السريعة

الصاعقة هي التي تحقق النصر ، لأنها لا تترك للعدو فرصة لاستجماع قوّته ورسم خططه .

هكذا استطاع « أبو سليمان » أن يبدّل بقوّته وشجاعته وإيمانه تاريخ العالم . فبنى مع الصحابة دولة الإسلام ، وحطّم الامبراطوريات الهرمة ، وأقام على أنقاضها مجد الفتوحات الإسلامية .

ولقد ظلّ الجنديَّ الوفيّ طوال حياته ، لم يقعد عن الحرب ولم يتخلف عن معركة واحدة . وتابع قيادة جيوش المؤمنين حتى غلب الروم والفرس ، وفتح بلاد الشام بعد أن قضى على المرتدّين .

ولما أصبح أميراً على حمص عرفت هذه المدينة شهامة خالد وكرمه وإيمانه ورأفته .

كان يعامل الشعب بالحسنى ، وهو القائد المنتصر أبداً . فعاش سكان حمص في ظلّه ينعمون بمحبته وعدالته ، وهم يتطلعون اليه دائماً بإعجاب وإكبار .

١٢

نهاية خالد

شهد خالد بن الوليد أكثر من مئة معركة ، وكم تمنّى الشهادة وهو يجاهد في سبيل الله والدين الحنيف !

ورفرفت رايةُ الإسلام على بـــلاد الشام والعراق والجزيرة العربية فنَعِم سيف الله بما جناه لهذه الأمة . لقد اطمأنّ دائماً إلى أن النصر حليفُ المؤمنــين الصادقــين .

لم يبقَ في جسد خالد شِبْرٌ واحد إلا وأصيب بطعنة أو ضربة . لكنه لم يمت ، وهو البطل ، على أرض المعركة . طلب الشهادة أكثر من مرة ، وأراد الله له الحياة لينعم بجنّة الدنيا بـــلاد الشام ، وهو

يراها بجمال مناظرهـــا ، وخصب أراضيها ، وإخلاص سكانهـــا .

وأعجب خالد بمدينة حمص ، أحبَّ نسيمهـــا اللطيف ، وجمال طبيعتهـــا ونهرها العاصي ، كما راق له شعبها ومـــا يمتاز به من رقة في الطبع ونقاوة في الأصل .

كانت أكثريـــة سكانها من القبائل العربية اليمنية . فعاش أميراً عليهـــا حتى أعفاه الخليفـة عمر من هذا المنصب .

ما كان الفاروق يأخذ على خالد إلا الجود بالمال لأهل الغنى . فكان يطلب منه ألاّ يوزع المال كيفما يشاء . حتى قال عمر بعد أن أعفى خالداً من منصبه :

ـ لم أعتب على خالد إلا بما كان يصنع بالأموال .

إن رجلاً كخالد بن الوليد اشتهر بعبقريته الحربيـة والنصر الدائم لا يفكّـر بتوفير المال . لقد جاد هذا البطل

بدمه من أجل إعلاء كلمة الإسلام فهل يحاول أن يوفّر المال !!

ظلّ خالد يحترم الخليفة عمر كل الاحترام . وهو يؤمن بعدالته التي كانت مضرب الأمثال .

وقد سبق للفاروق الحريص على سلامة بناء الدولة الإسلامية أن عزل زياد بن أبيه من منصبه لأنه رأى فيه عقلاً كبيراً لا تحتمله الرعيّة . وكان يعتبر نفسه مسؤولاً عن كل ما يحدث لرعيته ودولته ، حتى قال كلمته المشهورة :

« لو ضاع بعير واحد بين المدينة والعراق لخشيتُ أن يحاسبني الله عليه » .

ولما قاسم الخليفة خالداً في كلّ ما يملك مناصفةً ، قال خالد :

ــ كان يريد اللهَ فيما يفعل .

وفي خلافة الفاروق توفي البطل خالد بن الوليد .

أجل ! مات أبو سليمان الذي لا تستحي الأبطال أن تدين له ، صَمَتَ ذلك السيف الذي ذابت في ضراوته سيوف الأعداء ، السيف الذي قمع الردّة والشّرك ، وأعزّ الإسلام والمسلمين ، ومجّد كلمة التوحيد في الأرض .

لم يقضِ نحبه إلاّ ورأى بأُمّ عينه ازدهار الدولة الإسلامية التي كانت تخيّم عليها عدالة عمر .

مات خالد بعد أن جاهد حقّ الجهاد ، وأدّى واجبه أفضل أداء ، وبعد أن جال في دولة الفتح من المدينة إلى نجد والبحرين والعراق والشام .

أقام في حمص التي أحبّها ولم يترك خلفه من المال شيئاً . وانما ترك فَرَساً وسلاحاً أوصى بهما الى عمر ليُحبسا على الجهاد في سبيل الله !

كانت وصيته الأخيرة للخليفة الذي أكرم عدالته ،



ضريح خالد في حمص

فطلب الى الفاروق أن يقدّم سلاحه وفرسه هديه للجهاد المقدس .

لم يدّخر مالاً ، ولا ثروة . وانقرض نسله . لم يهدف من غزواته إلا إعلاء كلمة « الله أكبر » !

ولما بلغت الخليفةَ وصية « سيف الله » قال :

ـ رحم الله خالداً .

وحزن الخليفة على موته وكرر قوله :

ـ رحم الله خالداً . كان على غير ما ظننّاه به .

يومذاك شمل الحزن كل مسلم ، وراح المسلمون يكبّرون تكبيراً عظيماً !

أبى الله إلا أن يدّخر خالداً في كل الحروب ليرفع به أمةً ، ويملأ التاريخ صفحات من انتصاراته وأمجاده . ثم يميته على فراشه في أجمل بقعة من بلاد الشام . وهنالك

أوصى بالسلاح والفرس للجهاد .

كان نبأ وفاة أبي سليمان موجعاً مؤلماً ، فأثر بالمسلمين كافـــة . وراحت نساء قريش يبكين الظافر أبداً ، والمنتصر دائماً .

لم تبقَ امرأة واحدة من مخزوم ، قبيـــلة خالد ، إلا وقصّت العزيز من شَعرها حِداداً على ذلك البطل .

وأردف أمير المؤمنين يقول :

« لما مات خالد ثُلمت في الإسلام ثلمـــةٌ (ثُغْـرة) لا تُرتق » .

وندبته أمه قائلة :

أنت خيرٌ من ألف ألفٍ من الناس

إذا ما كبتْ وجوهُ الرجالِ

أشجاعٌ فأنت أشجع من ليثِ

عرينٍ صبٍّ إلى الأشبـــالِ

أجوادٌ فانت أجود من غيثِ

دياسٍ يسيلَ بين الجبالِ

فقال عمر :

« هل ولدت النساء مثل خالد ؟ صدقتِ والله ، إنه كانَ كذلك ! على مثل خالد فلتبكِ البواكي » !

كان خالد ناجحاً في كل المعارك التي خاضها : نجح في قتال المرتدّين ، ونجح في موقعة ذات السلاسل عندما قضى على القائد الفارسيّ ، ونجح في معركة اليرموك التي كانت باباً للنصر انفتح على مصراعيه أمام العرب . ونجح في تحطيم حصار دمشق ، فتوالى بعد ذلك سقوط مدن الشام .

وكما نجح في الحرب ، نجح خالد في عهد السلم ، فأحبّت الرعية فيه عدالته، كما سبق أن أحبت شجاعته .

لقد كان خالد بن الوليد بطل الناجحين ، فظلّ

نجاحـه حديث الأجيال المتعاقبة حتى يومنـــا الذي نحن فيـه .

أما النقاد العسكريون فقد أطلقوا عليه لقب « القائد الذي لم يُغلب . »

فهرست

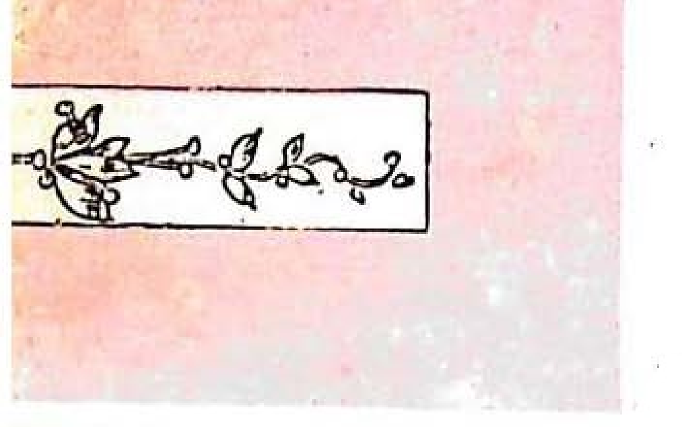
الناجحون

سلسلة كتب للفتيان والفتيات

زنوبيا	:	ملكة تدمر
خالد بن الوليد	:	بطل اليرموك
نابوليون بونابرت	:	الذي غير وجه أوروبا
بتهوفن	:	أبو السمفونيات
طارق بن زياد	:	فاتح الأندلس
هنيبعل	:	بطل قرطاجة
كولومبوس	:	مكتشف أميركا
مدام كوري	:	مكتشفة الراديوم
صلاح الدين الأيوبي	:	بطل حطين
عبد الرحمن الداخل	:	صقر قريش
غاندي	:	أبو الهند
اديسون	:	الذي أضاء العالم
شكسبير	:	شاعر الانسانية
المتنبي	:	شاعر العرب
ابن بطوطة	:	رحالة العرب
هيلين كيلر	:	المرأة المعجزة
الاسكندر	:	فاتح العالم القديم
شجرة الدر	:	أول ملكة في الإسلام
باستور	:	عدو الجراثيم
ليوناردو دي فنشي	:	الرسام الخالد

دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص ب ١٠٨٥

مطابع اوفست كومرغرافير
بيروت - تلفون: ٣١١٢٢٩



الناجحون

• مجموعة كتب تعرض حياة نخبة من أبطال العالم في الشرق والغرب ، في الحروب والسلم ، رجالا ونساء ، قديما وحديثا .

• تقدمها دار العلم للملايين الى الفتيان والفتيات الذين يريدون أن ينجحوا في الحياة .

• يقول المثل : ان النجاح يجر النجاح فتعرّف إذن الى الناجحين يسهل عليك تحقيق النجاح .

• أشرف على وضع هذه الكتب عدد من رجال التربية وعلم النفس في العالم العربي لتكون مدرسة حية لفتيان اليوم ورجال الغد .

الثمن ٢٥٠ ق . ل .

دار العلم للملايين

بيروت